مصطلحات علمية

« والترجمة والتعريب »

—((●))—

كنت منذ شرعت تدريس العلوم الطبيعية والرياضية في المدارس العربية بدمشق ، أي منذ عشرين عاماً ، أُرجح ان آخذ هذه العلوم عن الكتب الغربيـة ، اذ لامشاحة في أن بلاد الغرب هي منبع هذه العلوم في هذا العصر ، لكنني كنت أُلاقي في سبيل الوصول الى غايتي عقبات جمة في ترجمة المصطلحات الأعجمية الى اللغة العربية ، فان نفسي كانت — ولاتزال — تأبى استعمال تلك المصطلحات على علاتها أو تعريبها لاعتقادي بان كلا الحالتين لايخلو من الدلالة على احد امور اربعة : (الاول) عدم المبالاة باللغة العربية من ان يعتريها الفساد والتشوه فتصبح بمرور الزمن مزيجاً من لغات مختلفة محرفة الألفاظ مكسرة الحروف بحيث لايجدر أن يقال عنها انها «اللغة العربية» بل يجب أن تسمى باسم آخر ، فتبقى اللغة الأصلية مدفونة في ضرائح الكتب كاللغة اللاتينية وغيرها من اللغات المهجورة لا يعرفها ولا يقوم بذكرها سوى أفراد تلائل من محبي التفكه بها والولعين بالاطلاع على قديمها ، ثم ان هؤلاء يأخذ عددهم في النقص كلما أخنى الدهر عليها وأفناها الى ان تندرس وتتلاشى فتصبح نسياً منسيا ، (والامر الثاني) من الامور الاربعة التي يدل عليها تحبيذ التعريب : التكاسل عن بذل شيء من الهمة في التفتيش عن ألفاظ عربية تقوم مقام المصطلحات الأعجمية المراد تعريبها ، (والثالث) العجز عن ذلك ، (والرابع) العمد الى إفساد اللغة لسوء قصد بها .

فلما كنت اعتقد بما تقدم من ان الميل الى التعريب لاتخرج أسبابه عن الامور الاربعة المذكورة ، ولما كنت أعتمد على سعة اللغة العربية معتقداً بان كل معنى يجول في الذهن لابد من أن يكون له فيها لفظ ولو كان كامناً في أغوار معاجمها — كنت آخذ على نفسي أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا أجتاز عقبة من عقبات تلك المصطلحات دون تذليلها بترجمتها الى العربية ولو تكبدت في ذلك أعظم المشقات وفاديت باعز الأوقات . وقد وفقت ولله الحمد الى ترجمة جميع المصطلحات التي لاقيتها في نقل ما نقلته الى العربية من العلوم الغربية حتى الآن وخطتي في تلك الترجمة مبنية على ما يلي :

اولاً : ان لاأتقيد بالترجمة الحرفية بل كنت أترجم بعض الآلات مثلاً بالفاظ تفيد فعلها أو خاصة من خواصها كترجمتي Coupe - circuit « بالحارزة » وهي الآلة المعروفة عند العامة (بالبوشون) تجعل في مسير التيار الكهربائي حتى اذا اشتد التيار الى درجة الخطر احترقت فانقطع التيار فاندفع الخطر فهي إذن تحرز من خطر الحريق ولذا سميتها بالحارزة ، فلو أردنا ان نترجم أعجميتها بالحرف للزم ان نسميها (قاطعة الدارة الكهربائية) ففي تسميتها بالحارزة منفعتان الاولى استعمال لفظ واحد بدلاً من ثلاثة الفاظ والثانية ان يفهم من اسمها ماخاصتها وما فائدتها ، وذلك كما ترجم بعض الأفاضل (بالون) بالمنطاد و (صُومارِن) بالغواصة و (اوتوموبيل) بالسيارة مع ان كلمة بالون لا يفهم منها الانطياد بل يفهم شيء منتفخ كروي الشكل و (صومارن) معناه (تحت البحر) لا (الغواص) واوتوموبيل معناه (المتحرك من نفسه) لا (السيار) مع انه لا يتحرك من نفسه فيتضح من ذلك ان هذه الأسماء العربية أقرب الى فهم حقيقة مسمياتها من أسمائها الأعجمية نفسها ، وهذا من جملة محاسن نقل الاسماء الأعجمية الى العربية بالفاظ عربية دون تعريبها كما سنبين ذلك في مقال آخر ان شاء الله .

ثانياً : ان أتجنب في الترجمة الصيغ غير القياسية كاسم الآلة والصفة المشبهة وان اختار الصيغ القياسية كاسم الفاعل ومبالغته واسم المكان أسوة بالمتقدمين الذين ولدوا كلمات كثيرة على هذه الأوزان فان اسم الآلة سماعي لا يصح ان نصوغ على وزنه مانشاء من الاسماء لان أوزانه كثيرة فالعرب انتخبوا لكل آلة وزناً من الأوزان المعلومة وهكذا جاءت أسماء الآلات مسموعة عنهم فكما انه لا يسوغ لنا ان ننقل أحد هذه الأسماء من وزنه الى وزن غيره من سائر الآلات ، فلا يجوز لنا مثلاً ان نقول بدلاً من ملعقة مِلعق وزان مثقب او مِلعاق وزان مفتاح أو أن نشتق احد تلك الاسماء من فعل غير الفعل الذي اشتقه منه العرب فنقول (مُلكلة) بدلاً من (ملعقة) ، كذلك لا يجوز لنا أن نصوغ اسماء جديدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على أوزان اسم الآلة ، واما اذا كان ثمت اضطرار الى وضع اسماء لمسميات حديثة لم تكن عند العرب فالمجال أمامنا واسع لاستعمال كثير من الصيغ القياسية كاسم الفاعل واسم المفعول واسم المكان ومبالغة اسم الفاعل وهي صيغ لاخلاف في قياسيتها وليس لكل منهـا سوى وزن واحد خلافاً لاسم الآلة الذي كثرة أوزانه لابد من ان تؤدي الى الخلاف بين المترجمين واللغويين فاذا ترجم احدنا (مكرسكوب) مثلاً بالمجهر (بالكسر) كان لغيره الحق ان يترجمه بالمجهار ولآخر بالمجهرة ومن هنا الخلاف في وضع المصطلحات واتساع الفوضى اللغوية التي نسعى الى إزالتها ، اللهم الا اذا انعقد مؤتمر لغوي عام منتخب من جميع البلاد العربية مفوض اليه توليد ما يرتئيه من الاسماء ، يقرّ اللفظ ثم ينشره بين العرب عامة فيكون استعماله شبه إجباري بالتواطوء بحيث لايصح لمؤلف اومترجم او كاتب ان يستعمل غيره[1] واذا لم يعقد هذا المؤتمر فان ترجمة الاسماء الحديثة على الصيغ القياسية الآنفة الذكر خير من ترجمتها على أوزان مماعية لاينشأ من السير عليها الا الخلاف والتفرق في الرأي .

ثالثاً : اذا كان اللفظ الأعجمي كلمة واحدة ولم تمكن ترجمته بكلمة عربية واحدة فاني لاأتقيد بذلك إذ لاضرورة اليه بل يمكن ان تترجم الكلمة الأعجمية الواحدة بكلمتين عربيتين على ان يكون ذلك موافقاً لقواعد اللغة كما ترجمت (الكترود) بالمنفذ الكهربائي و (مترونوم) بميزان الغناء و (ترمومتر) بميزان الحرارة « وان يكن ترمومتر مركباً في الاصل من كلمتين فانه في الظاهر كلمة واحدة » وكذلك كل ما كان مركباً من (متر) وكلمة أخرى نحو بارمتر (وهو ميزان الجو) ومانومتر (وهو مقياس الضغط) وإغرومتر (وهو مقياس الرطوبة) ، وما المانع لهذه الترجمة ؟ فان قيل ان المصطلح العربي صار كلمتين مع ان مقابله الاعجمي كلمة واحدة فالأرجح ان يبحث عن كلمة عربية واحدة تقوم مقام كلمتين —

(١) ومما يجدر بهذا المؤتمر ان يعرض الكلمات التي يستحسنها على أنظار الناس في المدن العربية الكبرى على صفحات جرائدها وان ينظر فيما يرد عليه في تلك الكلمات من الملاحظات وذلك الى مدة معينة ثم يقرّها ، وبذلك يمكن التواطوء على ان يكون استعمال كلماته والأخذ بآرائه شبه إجباري فينتظم الحال وتزول الفوضى ، والا فان اعماله تذهب من هذه الوجهة سدى على ما نظن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلت فان وجدت تلك الكلمة فهي مرجحة على غيرها بلاريب ولكن على ان تفيد المعنى المراد وان تكون موافقة لقواعد اللغة ، لا كما أراد بعضهم ان يترجم ترمومتر (بالمحرار) ومانومتر (بالمضغاط) وإغرومتر (بالمرطاب) فهب اننا تواطأنا على توليد أسماء جديدة على أوزان اسم الآلة فان (مضغاط) مثلاً لا يفيد المعنى المراد من مانومتر وهو « الآلة التي يقاس بها الضغط » بل يفهم من مضغاط « الآلة التي يفعل بها الضغط » كما يفهم من مفتاح الآلة التي يفعل بها الفتح لا التي يقاس بها الفتح ، وشتان ما بين المعنيين . فما الذي يضيرنا من استعمال كلمتين ترجمة لكلمة واحدة اذا لم تساعد سليقة لغتنا على غير ذلك . ألم يكن كثير من الكلمات العربية يقابلها في اللغات الاعجمية كلمتان او اكثر كقولهم Face antérieure (وهما كلمتان) مع ان عربيتها مُقدّم (وهي كلمة واحدة) وقولهم Pendant deux jours (وهي ثلاث كلمات) وعربيتها يومين (وهي كلمة واحدة) وقولهم Un morçeau de fer (وهي اربع كلمات) وعربيتها حديدة (وهي كلمة واحدة) وقولهم Il est venu (وهي ثلاث كلمات) وعربيتها جاء (وهي كلمة واحدة) ، فهل غبطنا بذلك أصحابُ هذا اللسان وقاموا يسعون الى التفتيش عن كلمات مفردة تقوم مقام هذه العبارات ؟ كلا ، فان لكل لغة قوالب فالترجمة هي ان يؤخذ المعنى من اللغة المترجم منها ويفرغ في قوالب من اللغة المترجم اليها ، وعكساً لما تقدم فان سليقة لغتنا كثيراً ما تساعد على ترجمة المصطلح الاعجمي المركب من كلمتين او اكثر بكلمة عربية واحدة كما ترجمتُ Ultra - microscope (وهي مركبة من ثلاث كلمات) بكلمة عربية واحدة وهي (الجهّارة) .

وان قيل ان (ميزان الجو) مركب إضافي وهو مما تصعب النسبة اليه فكيف تترجم Hauteur barométrique مثلاً ؟ قلت لا ضرورة لترجمة النسبة بالنسبة ، بل يمكن ترجمتها بمركب إضافي فلك ان تقول في ذلك « ارتفاع ميزان الجو » (مجازاً اي ارتفاع زئبقه) فتكون حملتَ على المعنى المراد من العبارة الاعجمية مفرغاً في قالب عربي .

فهذه هي القواعد التي بنيت عليها خطتي في ترجمة كثير من مصطلحات العلوم وحيث ان بعض أصدقائي طلب اليّ ان أنشر تلك المصطلحات على صفحات هذه المجلة ، فنزولاً عند رغبتهم ، سأقوم بنشرها تباعاً مبتدئاً ببعض مصطلحات جاءت في كتابي المطبوع «القطوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الينيعة في علم الطبيعة » وقد درجتها كما يلي جاعلاً أرقاماً في خذاء ما لم يسبقني احد اليه منها والله الموفق .

* * *

١ — [حُرَيْرة — Calorie]

ان كل ماقبل الزيادة والنقصان يقال له في علم الطبيعة (قدْر) افرنسيته Grandeur كالطول والمال والحرارة ولاجل مقايسة كل قدر من الأقدار اضطر البشر الى ان يتخذوا من ذلك القدر جزءاً معيناً ليقايس به سائر أجزاء القدر وقد اصطلح علماء الطبيعة على ذلك الجزء (بالواحدة) — افرنسيتها Unité [1] — غير ان اكثر الواحدات تختلف باختلاف الامم فواحدة الطول مثلاً عند العرب الذراع وعند الافرنسيين المتر وعند غيرهم الاصبع والأنش والميل الخ حتى ان بعض الواحدات يختلف عند الامة الواحدة ايضاً بحسب استعماله ، فالافرنسيون اذا أرادوا قياس طول معتدل اتخذوا له المترَ واحدةً وفي قياس الأطوال الصغيرة يتخذون السنتمتر وهو جزء من مائة جزء من المتر وفي قياس الطرق الطويلة يتخذون الكيلمتر وهو الف متر ولما لم يكن لبعض الواحدات المستعملة عند الغربيين في العلوم الحديثة مقابل عندنا قد اضطررنا الى ان نقتبسها منهم ونستعملها في علومنا وصنائعنا التي طالما أخذناها عنهم . فلاقيت اثناء ترجمتي بعض كتبهم طائفة من هذه الواحدات أردت ان استعمل لها الفاظاً عربية فلم أجد أوفق من طريقة قد أتتني بالفاظ عربية فيها من الفوائد ما لم يكن في أصلها الأعجمي وهذه الطريقة هي :

ان آخذ مصدر المرة من مادة القدر المراد قياسه ثم أصغر ذلك المصدر ، مثال ذلك : عندما أردت أن أضع لفظاً يقابل Calorie [2] وهي الواحدة التي تقاس عليها كمية الحرارة

(١) وقد ترجم بعضهم Unité بالوحدة وهي ترجمة حرفية لامبرر لها لان الوحدة مصدر مع ان المراد من Unité هنا ليس المصدر بل الاسم وكذلك كثير من اسماء المصادر الافرنسية يرد بمعنى الاسم المطلق أو اسم المفعول نحو Radiation فانه اسم مصدر بمعنى الاشعاع مع انه يرد بمعنى الشعاع وكذلك Solution وهو الحلّ فهو يرد بمعنى (المحلول) .

(٢) Calorie مشتقة من كلمة لاتينية وهي Calor او Caloris ومعناه الحرارة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

— أخذت مصدر المرة من الحرارة وهو (حَرَّة) ثم صغرته فصار (حُرَيرة) ففي ذلك فائدتان : الاولى كون مصدر المرة يفيد الوحدة والثانية كون التصغير يفيد ان الكمية المفهومة من ذلك اللفظ هي جزء صغير متخذ للقياس عليه فهاتان الفائدتان غير موجودتين في معنى اللفظ الاعجمي وزد على ذلك انهم يضطرون أحياناً الى اتخاذ واحدة للحرارة اكبر من الواحدة المذكورة الف مرة فيسمونها Grande calorie مما يجعلهم في حاجة الى تقييد الاولى بـ Petite calorie واما انا فقد سميت Grande calorie بالحرّة و Petite calorie بالحريرة . فلا يخفى ما في ذلك من الاختصار وخفة اللفظ .

٢ — [أُبَيْدة — Dyne]
٣ — [أَبْدة — Mégadyne]
٤ — [آد — Sthène]

Dyne واحدة متخذة لقياس القوة تساوي جزءاً من ٩٨٠ جزءاً من ثقل الغرام في دمشق[1] فترجمتها بالأُبَيْدة تصغيراً للأَبدة وهو مصدر مرة من آد الشيءُ اذا قوي واشتد وصلب لأن Dyne كلمة مشتقة من Dunamis اليونانية ومعناها القوة ، ثم ان عندهم للقوة واحدتين أُخريين احداهما ما يسمونه Mégadyne وهي مركبة من كلمتين يونانيتين وهما [Mégas — اي كبير] و [Dunamis اي قوة] فمعنى هذه الواحدة أبيدة كبيرة وهي تساوي الف الف أبيدة[2] فسميتها (أبدة) والثانية ما يعبرون عنه بـ Sthène وهي من Sthénos اليونانية ومعناها القوة ايضاً وهي تساوي مائة أبيدة فترجمتها بـ (آد) بمعنى القوة ايضاً .

(١) او جزء من ٩٨١ جزءاً من ثقل الغرام في باريز لان الاشياء في باريز أثقل منها في دمشق لكون باريز أقرب من دمشق الى مركز كرة الارض وهو مركز الجاذبة التي تولد ثقل الاشياء وهكذا كلما بُعِد عن خط الاستواء تقرباً من أحد قطبي الارض ازدادت الجاذبة الارضية فازدادت الاشياء ثقلاً لان القطبين أقرب الى مركز كرة الارض من خط الاستواء لانضغاط هذه الكرة في قطبيها كما هو معلوم في علم الجغرافية .

(٢) اذا جعلوا في المقياسات Méga في صدر الكلمة أفاد معنى الف الف مرة واذا جعلوا Micro أفاد معنى جزء من الف الف جزء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ — [Dioptrie — كُسَيرة]

هي واحدة لقياس درجة كسر العدسات البلورية لأشعة الضوء وقدر هذه الواحدة قوة عدسة اذا ورد على أحد وجهيها حزمة أشعة متوازية خرجت هذه الحزمة من وجهها الآخر متقاربة بعضها من بعض حتى تتلاقى في بعد عن العدسة قدره متر . واصل Dioptrie (Dioptron) وهي كلمة يونانية مؤلفة من Dia بمعنى من بين و Optesthai بمعنى رأى ، فتكون كسيرة ليست ترجمة Dioptrie بالحرف ولاضرورة الى ذلك كما كنا قدمنا .

٦ — [Barye — ضُغَيطة]

٧ — [Pièze — ضغطة]

Barye واحدة متخذة لقياس الضغط وقدرها ضغط أبيدة [1] على سنتمتر مربع واحد وهي كلمة يونانية أصلها Barus ومعناه (الثقل) فترجمتها بالضُغَيطة لأنها واحدة قياس الضغط ، و Pièze كلمة يونانية ايضاً أصلها Piézein ومعناه (ضغط) تستعمل لقياس الضغوط الكبيرة وتساوي الف مليار ضُغَيطة فترجمتها (بالضغطة) .

٨ — [Lumen — ضُوَيءٌ]

٩ — [Lux — نُوَير]

Lumen كلمة لاتينية معناها الضوء سموا بها واحدة اتخذوها لقياس شدة الضوء فترجمتها (بالضويء) و Lux كلمة لاتينية معناها النور سموا بها واحدة اتخذوها لقياس درجة تنور الاشياء بالضوء فترجمتها (بالنوير) ولا يسع المقام هنا تعريفهاتين الواحدتين .

١٠ — [Erg — عُمَيْلة]

Erg كلمة مأخوذة من Ergon اليونانية ومعناها السعي اتخذوها لقياس مايقال له في علم الميكانيك (العمل الميكانيكي) فسميت هذه الواحدة (عُمَيلة) جرياً على القاعدة التي قدمت بيانها .

١١ — [Loupe — مكبِّرة]

١٢ — [Microecope — جاهرة]

١٣ — [Ultra - microscope — جهَّارة]

(١) راجع الكلمة رقم ٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

[نظّارة — Lunette]
[راصدة — Télescope] — ١٤
[مصوّرة — Photographe]

Microscope كلمة مؤلفة من الصدر Micro وهو يفيد جزءًا من الف الف جزء من المتر او Micros بمعنى (صغير) ومن Scope وهي مشتقة من Skopein اليونانية ومعناها (فحص) فيكون المعنى «آلة صالحة لفحص الاشياء الدقيقة» فترجمتها (بالجاهرة) بمعنى (كاشفة) من جهر الشيء اذا كشفه وفي الحقيقة ان الآلة المذكورة تكشف ما لا تستطيع العين ان تراه من دقائق الاشياء وقد ترجم بعضهم مكرسكوب بالمجهر (بكسر الميم على صيغة اسم الآلة) مع ان اسم الآلة سماعي لا يسوغ لنا ان نبني على أوزانه اللهم الا بالتواطوء كما قدمت ذلك في اول المقال .

ومما يحسّن لنا ترجمة مكرسكوب بالجاهرة دون المجهر كون المجهر له معان في اللغة العربية «فالمجهر من الكلام والصوت : الجهير ويقال رجل مجهر اذا كان من عادته ان يجهر بكلامه» فلا يخفى ما في استعمال المجهر بمعنى (مكرسكوب) من الالتباس بين هذه المعاني وزد على ذلك انه اذا ترجمنا Microscope بالجاهرة تسنى لنا ان نترجم Ulta-microscope بالجهّارة (بصيغة المبالغة) وهي آلة تكشف ما لا تستطيع الجاهرة ان تكشفه من دقائق الاشياء فما أجمل المناسبة التي بين اللفظين العربيين (جاهرة وجهارة) بالنظر الى اللفظين الافرنجيين Microscope و Ulta - microscope ولولا هذه المناسبة بين الصيغتين العربيتين لحرنا بماذا نترجم اللفظ الثاني ومعناه «ماوراء الجاهرة» .

[العينية — Oculaire]
[الجرمية — Objectif] — ١٥

للجاهرة عدستان مكبرتان احداهما مايضع الناظر عينه عليها فيقال لها عينية ترجمةً لـ Oculaire والثانية التي توجه الى المادة المفحوصة ، وقد عبّرت عن هذه المادة بالجرم ترجمةً لـ Objet وان لم تكن ترجمة حرفية غير ان قلة استعمال لفظ الجرم تساعد على ان يجعل له شبه تخصيص بالمادة التي تفحص بالجاهرة او غيرها من الآلات البصرية وكان الحق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان يترجم Objet بالشخص لانه ضد الخيال غير ان كثرة استعمال الشخص لا سيما في غير معناه الاصلي لاتساعد على التخصيص المذكور وعلى ذلك ترجمت Objectif بالجرية .

١٦ — [Revolver — دوّارة]

في الجاهرة آلة يعلّق بها بضع جرميات فتدار على محورها لتجعل الجرمية المراد استعمالها امام الجرم المفحوص فتشبيهاً لها بالآلة التي تبدّل فيها القذائف في المسدسات سموها Revolver فترجمتها بالدوارة لدورانها على محورها ولاشتقاقها من Eo revolve الانكليزية ومعناها قَلَبَ ولَفَتَ .

١٧ — [Lame — الصفيحة]
[Lamelle — الفَراشة]

يجعل الجرم المراد فحصه بالجاهرة على صفيحة رقيقة من زجاج ثم يستر بصفيحة أخرى من زجاج أرق من الاولى كثيراً فالاولى معروفة «بالصفيحة» ترجمة لـ Lame اما Lamelle فكان حقها ان تترجم «بالصُفَيّحة» بصيغة التصغير لكن مشابهتها للاولى في الرسم تؤدي الى الالتباس فاضطررت الى ترجمتها بالفَرَاشة (بفتح الفاء وتخفيف الراء) وهي في الأصل كل رقيق من عظم أوحديد .

١٨ — [Diaphragme — الحِظار]

في الجاهرة تحت عدستها الجرمية صفيحة مستديرة في وسطها ثقبة لتحديد حزمة أشعة الضوء التي ترد على الجرمية فسموا هذه الصفيحة Diaphragme من كلمة يونانية Diaphragma ومعناها الحجاب فترجمتها بالحظار (بالكسر) وهو كل شيء حجز بين شيئين وانما رجحت الحظار على الحجاب ليكون أقرب الى التخصيص بالصفيحة المذكورة لانه أقل استعمالاً من الحجاب .

[Alcool — الغَوْل]

Alcool كلمة تستعمل بمعنى ما يستقطر من الخمر وتعبر عنه العامة بالاسبرتو ووجود الالف واللام في صدر كلمة Alcool يدل على انها عربية الاصل لكنه قد تضاربت الآراء في أصلها فمن قائل كحل أوكحول ومن قائل كؤول أو كهول أو قلي الى غير ذلك ، إما الكحل فليس من وجه شبه بينه وبين المائع المبحوث فيه إذ ان الاول جامد والثاني مائع والاول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أسود والثاني بلالون اللهم الا اذا قلت ان الأصل كُحيل (بضم ففتح) وهو النفط « زيت الكاز » فهو يشبه الاسبرتو في أمرين : السائلية وسرعة الاحتراق . وأما كؤول فأقرب لفظ عربي اليه الكؤولة ومعناها أن يشتري الرجل أو أن يبيع ديناً له على رجل بدين لذلك الرجل على آخر وهذا المعنى ايضاً لاعلاقة له بمعنى Alcool ، وأما كهول فمعناه ان يصير الرجل كهلاً وهذا ايضاً بعيد عما نبحث فيه ، وكذلك لم أر مناسبة بين الاسبرتو وبين القَلي والحاصل اني لم أجد لفظاً أوفق للمطلوب من الغول (بفتح الغين) من غاله يغوله اذا ذهب بعقله أو بصحة بدنه ، ولاجرم أن الاسبرتو يذهب بعقل شاربه وبصحة بدنه وتسميته بالمصدر للمبالغة لانه هو مادة الإسكار في كل شراب مسكر ، وقد جاء في القرآن الكريم « لا فيها غول ولا هم عنها يُنزَفون » أي ليس في كأس الشراب التي يطاف بها على أهل الجنة خمار يغتال عقولهم ولا يصدرون عنها سكارى .

١٩ — [شعاع — Rayon]
[شعاعة — Radiation]
[اشعاع او تشعشع — Rayonement]
٢٠ — [شُعّ — Vecteur]
٢١ — [مُشِعّ — Radiant]
٢٢ — [مُشِعّة — Radiateur]
٢٣ — [شعيع — Roue]

الشعاع ضوء الشمس الذي تراه كأنه حبال مقبلة عليك وفي الاصطلاح الشعاع الخط الهندسي الذي ينتشر عليه الضوء افرنسيته Rayon وقد دل علم الطبيعة على ان شعاع الضوء الابيض ليس بسيطاً بل هو مؤلف من ألوان لاتحصى أشهرها سبعة معلومة في ذلك العلم فسموا كل لون منها Radiation فترجمتها بالشعاعة لان الشعاعة واحدة الشعاع .

وأما Vecteur فهي كلمة اصطلحوا بها في علم الهندسة على كل خط ممتد بين محرق الشكل الدوراني [كالقطع الناقص والقطع الزائد] وبين محيطه ومعنى Vecteur الشعاع ايضاً فترجمته بالشُعّ [بضم الشين وتشديد العين] لانه بمعنى الشعاع .

وأما Radiant فهو من مقاييس محيط الدائرة في علم الهندسة ترجمته بالمُشِعّ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما كلمة Radiateur فقد عبروا بها عن آلة تستعمل لتدفئة المكان بهواء حار يجري فيها فترجمتها بالمُشِعّة لان هذه الآلة تنشر حرارتها كما تنشر الشمس أشعتها .

وأما Rone — وهو ما تُرجم بالدولاب أو بالعجلة — فأرى الافضل ان يترجم بالشعيع وهو في اللغة العجلة لاسيما وان قضبانه تكون ممتدة من وسطه الى محيطه كالأشعة .

٢٤ — [التوهّج — Incandescence]
٢٥ — [التلألؤ — Luminescence]
٢٦ — [البصيص — Phosphorescence]
٢٧ — [البريق — Fluorescence]

يصطلحون بـ Incandescence على إضاءة الشيء ساخناً وبـ Luminescence على إضاءته بارداً وبـ Phosphorescence على نشره أشعة في الظلام وبـ Fluorescence على نشره أشعة في الضوء وهو ينار فخصصت التوهج بالحالة الاولى والتلألؤ بالحالة الثانية والبصيص بالحالة الثالثة والبريق بالحالة الرابعة .

٢٨ — [النوّارة — Projecteur]
٢٩ — [المُوقِعة — Projecteur]

يعبر الافرنسيون بكلمة Projecteur عن آلتين مختلفتين في الشكل وفي الاستعمال وكان الأجدر ان يعبروا عن كل منهما بلفظ خاص به . أما الاولى فتستعمل لاجل إنارة المواضع البعيدة وتبادل اشارات المخاطبة بتقطيع الضوء بفترات معينة فسميتها بالنوّارة (بالتشديد) لشدة نورها ولقوة ارسالها أشعة الضوء الى بعد شاسع . وأما الثانية فهي تستعمل في إيقاع الأخيلة[1] على ستار ابيض في غرفة مظلمة كإيقاع الصور المتحركة[2] وغيرها فسميتها بالموقعة (بضم الميم وكسر القاف) ويقال لها « الفانوس السحري » .

« للبحث صلة »

الطبيب : محمد جميل الخاني

(١) الأخيلة جمع خيال وأما خيالات فجمع خيالة . (٢) سينما .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الف ليلة وليلة

تاريخ حياتها

—((●))—

« المحاضرة الثانية »

ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كألف ليلة وليلة أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبه ، لاننا اذا فزعنا الى التاريخ نسأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الاديب ومنهاج المؤرخ ، واذا رجعنا الى نص الكتاب ندرسه لنتبين من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعقائد أهله — نصيب كل جنس وجيل في تكوينه وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجة خادع الرأي قليل الغناء ، لان كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لاتجد نسختين منه تتفقان لا في الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول الصعلوك الثاني : انه قرأ القرآن بالروايات السبع وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراآت كالألفية في علم النحو ، وفي بعض النسخ لايذكر الشاطبية ويكتفي بذكر الروايات السبع . فلو ان ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمنا بان هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى اي الرقمين نعتمد في تاريخ هذه الحكاية ؟ إذن لم يبق للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تاريخ الحضارات المقارن وعلى مابقي في الكتاب من صور الاساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهها الناسخ ولم يعف عليها الزمن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان أول من ذكر الف ليلة من المؤرخين علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ في كتابه مروج الذهب فقد قال حين عرض لأخبار إرم ذات العماد « ان هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك برواياتها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية (وفي رواية أُخرى الفلهوية بدل الهندية) مثل كتاب هزار أفسانه ، وتفسير ذلك بالفارسية خرافة ويقال لها (أفسانه) . والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرزاد ودنيا زاد » ثم جاء بعده محمد بن اسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ فقال في الفهرست: « اول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن الفرس الاول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشفانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ومعناه الف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك علي استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة .... رُزقت في اثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيا زاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب أُلف لحميا ابنة بهمن » .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : « والصحيح ان شاء الله ان اول من سمر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويُخرّفونه لا يريد بذلك اللذة وانما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزار افسانه ويحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر لان السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيته بتمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث » .

فالرجلان كما ترون متفقان على ان الكتاب منقول عن هزار افسانه الفارسي وانه موضوع في خبر الملك والجاريتين شهرزاد ودنيازاد وان اسمه في عصرهما كان الف ليلة لا الف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليلة وليلة « ولاعبرة بمجيء اسم الكتاب كاملاً في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب فان ذلك من زيادة المصحح » . ويختلفان في نسب البنت والجارية فيقول المسعودي ان شهرزاد بنت الوزير ودنيازاد جاريتها وهو الصحيح ، ويقول ابن النديم ان شهرزاد من أولاد الملوك وان دنيازاد قهرمانة الملك ، ويزيد ان الكتاب يحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر وانه أُلف لحميا أو همياً أو حماني أو حمانة أو خماني على اختلاف الروايات وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ولا يوجد غيرهما فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء اللهم الا إشارة الى وثيقة ثالثة مفقودة نقل عنها المقريزي في الخطط والمقري في نفح الطيب وعزواها لمؤرخ مصري اسمه القرطي الف كتاباً في تاريخ مصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي ذكر فيه الف ليلة وليلة وقايس بين قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا دليل على ان الكتاب على أي صورة من الصور كان معروفاً في مصر على عهد الفاطميين ، وان اسمه كان إذ ذاك الف ليلة وليلة ، وان عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله . ثم تجاهله بعدئذ أدباؤنا ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ، ولم يسجلوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس المستشرقين البارون سلفستر دساسي ، فبدأ البحث العلمي في أصله بمقالين نشرهما في جريدة العلماء Journal des savants أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده باحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد ، وانه مؤلف في العهد الاخير ، وانه عربي الوضع من فاتحته الى خاتمته ، ودفع قول المسعودي ان فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية . فناقش أدلته قوم آخرون أشهرهم الاستاذ (يوسف فون هامر) الالماني فقد نشر في سنة ١٨١٩ مقالاً في احدى المجلات الالمانية ، وفي سنة ١٨٢٣ مقالاً آخر في المجلة الاسيوية أيد فيهما رأي المسعودي تأييداً لا سبيل عليه لآخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ (وليم لين) الانجليزي قسماً من الف ليلة وليلة وقدم له مقدمة حاول ان يثبت فيها ان الكتاب تأليف رجل واحد وانه أُلف فيما بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد . ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من ثقات العلماء أشهرهم : گوچي ومولر ونولدكي واوستروب وكريمر وشوڤان وكارادڤو ، فاستجلوا على قدر إمكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب حتى أصبح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ماجهلوه أن نثبت في هذا الأصل رأياً يقارب الصواب ان لم يكنه .

[أصل الكتاب وطبقاته] — أصل هذا الكتاب نواة من الأقاصيص الهندية والفارسية تسمى هزارافسانه ترجم الى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان « الف ليلة » وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم . ثم تجمع حول هذه النواة في الازمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان طبقة بغدادية صغيرة وطبقة مصرية كبيرة . فأما النواة أو الأصل او الاطار كما يسميه الباحثون فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية : حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان وهي مقدمة الكتاب وحكاية التاجر والجني ، وحكاية الصياد والجني ، وحكاية حسن البصري ، وحكاية الحصان الآبنوس ، وحكاية الامير باسم وجوهر السمندلية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان والأميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال .

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألمعنا الى ذلك من قبل ، ففريق يرى ورأيه الأرجح ان المقدمة وبعض حكايات الاصل هندية ويبني هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب ، فأما المشابهة والموضوع فان في حكاية الملك شهريار واخيه مشابه من « كثاسارت ساجارا » الهندية . وأما المشابهة في الطريقة فان إدماج حكاية في حكاية وتوليد قصة من أخرى احدى خصائص الأدب القصصي الهندي وهي ملحوظة في قصة (مهابهاراته) و (بنجه تنتري) اصل كليلة ودمنة ، لان الباعث الاول على القصص في أدب الهند كان ابناء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور عن عزمه ، ويحجز المتسرع عن وجهه ، كما فعل البيغاء مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية (سوكاسابتاتي) فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلهو الحديث عن زيارة خليلها في غيبة خليلها ويقطع حديثها دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً اذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات الف ليلة وليلة فلا نزاع إذن في انها هندية . وأما المشابهة في الأسلوب فان من لوازم القاص الهندي ان يقول : لا تفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلاناً فيسأله السامع وكيف ذلك فيجيب القاص على هذا السؤال برواية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القصة . وهذا الأسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من الف ليلة ، وقولهم فيها و كيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية (كاثام إتات) ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات وينتهي الى ان هناك طائفة من الأقاصيص لاشك في انها فارسية وهي حكاية الحصان الآبنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال وحكاية قمر الزمان والاميرة بدور وحكاية بدر باسم والاميرة جوهر السمندلية وحكاية أردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى ان الأصل كله فارسي تأثر بالعقائد اليهودية والإغريقية والاسلامية ويريد أحدهم وهو الاستاذ گوچي ان يجعل بين هيكل الف ليلة وليلة وبين قصة استر اليهودية صلة ونسبة . ذلك لان ابن النديم في الفهرست يقول ان هزار افسانه أُلف لحميا بنت بهمن ، والطبري يقول ان استر هي زوج بهمن ، والمسعودي يجعل استر زوجة لبختنصر ويسميها دنيازاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد ايضاً على أم حميا بنت بهمن اي على زوجة بهمن وهي التي سماها الطبري استر . ويقول المسعودي ايضاً في موضع آخر ان أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الاولين . أما وجه الشبه بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة الف ليلة فهو أن الملك أسربوس كان كالملك شهريار لا يرى المرأة الا ليلة واحدة ، فتزف اليه البكر مساءً ليطردها من قصره صباحاً دون ان يقتلها كما يفعل شهريار واستر كانت كشهرزاد تستهوي الملك وتخلب لبه فيستبقيها ، وهي بنت الوزير وشهرزاد بنت الوزير ، وهي تغرر بنفسها لتنقذ بنات جنسها من شر الفضيحة والذل ، وشهرزاد تفعل ذلك الفعل لتدرأ عن بنات قومها خطر السباء والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الاصل عربياً بحتاً اوفارسياً بحتاً اوهندياً مشوباً — فهي ان القصاص العرب قد عبثوا به عبثاً شديداً فبدلوا أسماءه وغيروا أسلوبه وموهوا لونه واخترعوا بعضه وطبعوه بطابع اسلامي محض ثم بعثروه في جوانب الكتاب وثنايا القصص حتى التاث على المقاييس الفنية فرزه وتحديده .

واما الطبقة البغدادية فتتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب واتسمت بسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف . تمثل حياة الطبقة الوسطى باسلوب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥١

صحيح عذب وتصور حضارة بغداد في ايام العروس[1] بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغني في الأسواق ، وضجة الغلمان في الافنية ، وقصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق اللاهية في دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملاك رحمة ورسول عناية يجيء متنكراً وظاهراً في كل مكان بالثروة للمحروم والعدل للمظلوم والوصل للعاشق البائس . ولا أقصد بذلك الى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون بغدادية ، فان افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعلاه رمزاً للرخاء والعدل حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن الرواة ودوّن في الكتب مستقلاً وغير مستقل . فهي على ما أُرجح بقايا القصص التي نشرها الادباء البغداديون ثم طواها الزمن ، وقد عد ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي بن اديم ومنهلة ، وقصة عمرو بن صالح وقصاف ، وقصة ابي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة احمد بن قتيبة وبانوحة ، وقصة ريحانة وقرنفل وقصة سكينة و لرباب الخ ...

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكاية علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقة الأسى على جدهما العاثر ونهايتهما المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة وهو الرسائل الغرامية التي تجري بين العاشقين اذا عز اللقاء وعيل الصبر . ثم حكاية أنس الوجود وورد الأكمام وهي تطعة حب وشعر وغزل . تجدون من فيها : اما محباً أو حبيباً أو واصلاً بينهما ، والشعر الذي تضمنته انما أُنشئ لها خاصة فهو مطابق لمقتضى أحوالها ، مشتمل على أسماء أبطالها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سماك أنس الوجود ... يا جامعاً ما بين أنس وجود

يا طلعة البدر الذي وجهه ... قد نوّر الدنيا وعم الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الحمال والصعاليك الثلاثة . ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليع . ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني . ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري . ثم حكاية المعتضد مع ابي الحسن الخراساني وهي تدور

(١) ايام العروس اسم كان يطلقه البغداديون على عصر الرشيد . (المسعودي)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل . ثم حكاية الشاب البغدادي مع جاريته . ثم حكاية الجواري الضرائر . ثم حكايات السندباد البحري وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخطرات في مياه الهند والصين قام بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في العمران والعظمة .

ومما لاجدال فيه أنها كانت في الاصل رحلة حقيقية شوهها الناس بالمبالغة ، وزيفها القصاص بالافتعال والتزيد ، ولعل صاحبها هو الذي نحا بها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في كتابه عجائب الهند . فلو صفيناها من سخف الأساطير وصرف الحديث كالسمكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وبيضة الرخ التي يحسبها الراؤن قبة إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هذا الموضوع كوصف جزر المهراجا أو المهرجان كما يسميه السندباد ، والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان ، وماذكر عن الفيل والكركدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ ...

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف قلبه حب الأسفار ومصارعة الأخطار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض غمرات الهول ويكابد غصص الغرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ الا يزمع رحلةً بعد هذه المرة . فاذا ماعاد سالماً غانماً الى دياره ، ونعم حيناً بالعيش الرخي بين ندماه وسماره ، عاده الوله الشديد الى البحر الغادر ، ونازعته نفسه الطلعة الى الأفق البعيد ، فيجتوي الراحة ، ويعاف النعيم ، ويبتاع البضائع ، ويكتري السفينة ، ثم يقلع من البصرة !!

واما الطبقة المصرية فهي أوسع الطبقات وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقها في اللهجة وأقلها في البلاغة . تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليهودية والاساطير الفرعونية . وقد قسمتها حين حللتها الى طبقتين قديمة تنتهي بالقرن الثامن وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تدور على المغامرة والحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والأرصاد والجن والسحر والقدر كحكاية جودر التاجر وإخوته ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية مسرور وزين المواصف ، وحكاية قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والأحدب ، وحكاية مزين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بغداد وهي قطعة فنية قوية رائعة ، ثم حكاية علي شار او بشار مع زمرد . والطبقة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الأسلوب جريئة العبارة تدور تارة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعبر . وظهور القصص المحتال الساخر بجانب القصص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة — إنما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن ان تبدو هذه الظاهرة ايضاً في قصص بغداد لولا ان مغامرات اللهو والحب فيها قد غلبت في نفوس القصصيين على كل شيء وهم الى ذلك كتاب يتأبهون عن حياة العامة . فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته ابو الباز شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص٤٧٩ من طبعة مصر « أنه برز في مكائده وما أورده من حيله على دالة المحتالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم » ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة .

وكان في بغداد كما كان في القاهرة نظام (التوابين) وهم اللصوص الذين اذا أتعدهم الكبير عن السرقة تابوا ورسمهم الخليفة شيوخاً لأصناف اللصوص فاذا حدثت حادثة عرفوا فعل من هي . ذكر ذلك المسعودي ايضاً في ص٤٧٣ من الجزء نفسه وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء والشيوخ كما يقصه علينا الف ليلة وليلة .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحيل إذن بطبيعة العمران فضلاً عن تأثرهم بما بقي مذكوراً على بعض الألسنة من أساطير العهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا واللصوص الاربعين مثلاً تشبه قصة وردت في (كتاب الأقاصيص الشعبية في مصر القديمة) لكبير الأثريين الاستاذ (ماسبيرو) . ثم تأثروا في أقاصيص العبر والعظات بالاسرائيليات كحكاية مدينة النحاس وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك مادعا الاستاذ (فكتور شوفان) الى ان يقول ان القصص المصرية الاخيرة إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الاستاذ لان علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهر الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها .

وأشهر أقاصيص هذه الطبقة حكاية علي بابا واللصوص الاربعين ، وحكاية علاء الدين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منهـا لص بغداد للسينما ، ثم حكاية معروف الاسكاف ، وحكاية ابي قير وابي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وملكة الحيات وقصة مدينة النحاس ، وحكايات احمد الدنف وحسن شومان وعلي الزيبق ودليلة المحتـالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك النـاصر والولاة الثلاثة ، وحكاية الرجل الصعيدي وامرأته الافرنكية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الاربع تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأقاصيص الصغيرة ليبلغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد كقصة عجيب وغريب وسهيم الليل وهي من قصص البطولة والحرب تستعير وقائعها في العراق بين العرب والعجم أو بين دين الحنيفية والمجوسية ، وتستعير صورها من قصة عنترة وسيرة ابن ذي يزن ، ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والاميرة دنيا وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي ملفقـة من أمثال كليلة ودمنة .

وطائفة أخرى يغلب فيهـا أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم ، وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد ، وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجلس الرشيد ، فان الجارية كانت تجيب السائل في الفقه على المذهب الشـافعي وتصرح بذلك ، وتذكر في التقويم الزراعي الشهور القبطية ككيهك وبرموده وبشنس ومسرى وأمشير ، ثم تقول في حضرة الرشيد : الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان . ومن الغريب ان الاستاذ اوستروب يقول في دائرة المعارف الاسلامية ان هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان (لادون زلاتيودور) أو تودور . ويظن ان تودد تصحيف تودور . ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لارى كيف تتفق مع قصة كل مافيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة .

وهناك عدا ماذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والاجواد ونوادر الاولياء والزهاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين لم يقصد بها الا توسيع الكتاب .

[مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته] — ذهبت جهود الباحثين باطلاً في تحقيق هوية المؤلف ، لان هزارافسانه نقل الى العربية غفلاً لم يسم واضعه ، ثم غشيته الطبقتان البغدادية والمصرية على التدريج ، فكان كل قصاص يكتتب لنفسه ماسمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الأقلام دون ان يسندها الى راوٍ او يعزوها الى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد ان يحفظ ويقص لا أن يروي وينشر ! فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته قيض الله لها من ضم شتات الفتها ونسق نظام وحدتها ثم دونها على هذه الصورة . ولم يستطع ذلك الجندي المجهول ان يملي اسمه على الخلود ، إما لتواضع فيه حمله على إنكار ذاته ، وإما لتواطؤ من النكران والنسيان أمات اسمه بعد مماته ، ومن التوافق الغريب ان أسماء الكتّاب الذين وضعوا القصص الفرنسوية الكبيرة في العهد الذي دوّن فيه الف ليلة وليلة قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك ، كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً فان الكتّاب تكون على اليقين من أعمال مستقلة ثم تما بالاتفاق على توالي الحقب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الاعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الإمكان . أما التاريخ الذي قرّ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن ان نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و٩٣٣ وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ وليم لين الانجليزي بين سنتي ١٤٧٥ و١٥٣٥ للميلاد اي في مدى خمسين سنة فوافقناه في الغاية وخالفناه في البدء ، ولم نر هذا الرأي اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من النص الظنين من جهة أخرى ، وانما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي وهو ان الاستاذ الفرنسي (جلان) قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ وقد نقله عن نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر غفلاً من التاريخ ، ولكن الذي نقلها الى الشام وهو من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طرابلس كتب عليها بخطه انه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ثم انتقلت من يده الى يد آخر من حلب فكتب عليها ايضاً تاريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل سنة ٩٤٣ بزمن نقدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الاعلى اما من جهة الطرف الادنى فانا نجد ذكر القهوة المعروفة يتردد في بعض الحكايات كحكاية ابي صير وابي قير وحكاية علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً وذلك لا يكون قبل العقد الاول من القرن العاشر لان القهوة لم تنتشر في الشرق الا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ الباب العالي وبعض النظم العثمانية تذكر من حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكاف وهي مصرية قطعاً والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوّن بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ .

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، اما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل ان تيسر في حكاية تعذر في أخرى ، وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالاستاذ وليم بوير الامريكي فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الاسيوية جزم فيه بان حكاية الوزيرين شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ويرجح انها كتبت سنة ٧٠٦ وان قصة الخياط والاحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الاخرى كمزين بغداد قد أُلفت سنة ٨١٩ للهجرة والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا الى التفصيل الذي يمك في الروح ويخمد نشاط الحديث .

سمى العرب هزار افسانه الف ليلة ولو أرادوا الترجمة الامينة لقالوا الف خرافة أو أسطورة ، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما ان الليلة كانت في اصطلاحهم ترادف الاسطورة باعتبارها زمناً لها وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد ابن اسحق الوراق : « ابتدأ ابو عبدالله الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره وأحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلى بنفسه .. فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه الف سمر ... » وإما ان يكون عدد الالف في الاصل انما أُريد به التكثير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لاالتحديد على حد قوله تعالى : « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وأحر به ان يكون كذلك فان ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً وقال ان فيه دون المائتي سمر وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٦٤ حكاية قسمها المؤلف على الف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة فان شهرزاد يدر كها الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق على انه لم يبق مما رآه ابن النديم الا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

إما زيادة الليلة على الالف فمن عمل القرن السادس لان النسخة التي رآها القرطي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة . ويقول (جلدمستر) في تعليل زيادة الليلة ان العرب يطيرون بالأعداد الزوجية وهو زعم غريب مارأيت في تاريخنا ولا في أدبنا مايؤيده . ولقد ظل الكتاب اكثر من قرنين يسمى الف ليلة وكان الجهشياري يريد أن يسمي كتابه الف سمر وعندنا الفية ابن معطي والفية ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم ان يؤيده اوستروب في دائرة المعارف ويزيد عليه ان ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث ايضاً على هذه التسمية ! وليس في قولنا الف ليلة وليلة كما تعلمون تسجيع ولا مزاوجة . والغالب في رأيي أن الليلة انما زيدت فوق الالف لافادة الكمال كطفحة الإناء ورجحة الميزان ، لان الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً . والكمال درجة فوق التمام ، وان في لغة التخاطب مايشبه ذلك فقد يقال في المن قضيت لك الف حاجة وحاجة وفي المبالغة زرتك الف مرة ومرة وهلم جرّا .

« للبحث صلة »

احمد حسن الزيات
عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رحلة اوليا جلبي

« في البلاد العربية »

—«»—

تمهيد ٠ — محمد ظلي افندي المعروف باوليا جلبي اي الولي الفاضل سائح تركي شهير من رجال القرن الحادي عشر الهجري (ولد في سنة ١٠٢٠ وتوفي في سنة ١٠٩٠) زار أكثر الامصار التي كانت تتألف منها السلطنة العثمانية المترامية الاطراف في ذلك العهد ووضع في وصف رحلاته العديدة بضعة مجلدات لم يطبع منها الا القليل وهي تعد عند الترك من الآثار القيمة لما تضمنته من بيان عمران البقاع والبلدان التي شاهدها ووصف مناظرها ومبانيها وأحوال سكانها وصفاً لا بأس فيه تتخلله طائفة من النبذ الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لولا أن فيها شيئاً غير يسير من شوائب المبالغة والاحاديث الخرافية وذكر الاضرحة والكرامات التي كان يهتم الجلبي بها كثيراً شأن رجال تلك الايام ٠

قيل ان اوليا جلبي لم يوفق في صباه في تلقي العلوم وان جمال صوته ساقه للولع بفنون الادب والموسيقي الى ان كان ذات يوم في رمضان سنة ١٠٤٥ يتلو القرآن في جامع اياصوفيا فأعجب السلطان مراد الرابع بصوته ورفعه الى قصره وجعله من ندمائه ٠ الا أن تلك الابهة والنعمة اللتين صادفهما أوليا جلبي في القصر كانتا محاطتين بضروب التقييد والحصر ٠ فلم تروقا لعينيه ولم تتفقا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مع خفته وظرفه وحبه للحرية والانطلاق وشغفه بالسفر وجوب الآفاق . فغادر القصر بعد مكوث سنتين وراح يجول في الامصار تارةً منفرداً وتارةً مع كبار الوزراء والقواد لاسيما مع خاله ملك احمد باشا احد صدور ذلك العهد البارزين . ورافق أهم الجيوش التي ساقتها الدولة العثمانية إذذاك في الشرق والغرب وحضر الحروب ووصفها وبهذا تسنى له ان يرى اكثر بلاد الاناضول والروم ايلي ووصل الى جزيرة كريت وجال ايضاً في أجزاء بعض ايران والقفقاس وجنوبي روسية ومولداويا وترانسلفانيا ودالماتزيا وهنغاريا والنمسا والمانيا وهولاندة .

وقد زار هذه البلاد الاوربية وهو في بطانة السفير العثماني المرسل الى هولاندة . ولم تفته من البلاد العربية الشام ومصر والحجاز . جاء مرة الى دمشق صحبة مرتضى باشا المعين نائباً على الشام وذهب مرة أخرى معه لما جرد جنده لجباية الاموال الاميرية من الدروز وغيرهم في جنوبي جبل لبنان وجبل الجليل وأرسله الباشا في غيرها بمهمة الى غزة فمر باكثر مدن الشام الشمالية والجنوبية وعرفها ووصفها . وقد استرعت رحلة هذا السائح التركي أنظار علماء المشرقيات في اوربا فترجموا منها ما يختص ببلادهم الى اللغات الالمانية والانكليزية والمجرية . لذلك أحببت ان أحذو حذوهم فأنقل الى لغتنا وصف البلاد العربية التي زارها لحسباني ان في ذلك ما يفيد معرفته من الأوضاع الجغرافية والحالات الاجتماعية التي كانت قبل ثلاثة قرون . وقد تصرفت في عبارة الجلبي وحذفت منها ما ليس في ذكره نفع وعلقت عليها نبذاً في ترجمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاشخاص وذكر أسماء المدن والقرى التي كانت في طريقه اوحولها مما فاته بيانه ووصفت منها بعض ماتسنى لي زيارته ورؤيته أوالعثور على ذكره في الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة وعنيت بسرد الفرق بين حالتها حينما مرَّ بها الجلبي وحالتها الحاضرة ليكون ذلك تكملة لهذه الرحلة واقتداءً بمايكتبه مؤلفو كتب الأدلة للسائحين في بلادنا كايز امبر وشوفه ومونمارسه وبيديكر وغيرهم من أفاضل الفرنج الذين لم يقتف أثرهم احد من كتابنا بعد حتى أصبح هؤلاء الغربيون الغرباء يعرفون بلادنا ومسالكها وخططها ومصانعها وعادياتها وحالات أهلها وطبائعهم معرفة تامة ليس لاكثر مفكرينا نصيب منها وماذلك الا لوفرة ماعندهم من هذه الكتب وأشباهها وفقدانها لدينا بالكلية ٠

وقبل الشروع بسرد الرحلة لابد من التنويه بان المحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر وقد ترجم كثيراً من فضلاء الترك وأعيانهم في ذلك العهد لم يذكر اسم أوليا جلبي على الرغم من ان هذا جاءَ الشام وساح فيها ومكث في دمشق مدة ولم يترجم ايضاً مرتضى باشا الذي جاءَ الجلبي في حاشيته وظل والياً في دمشق نحو سنة وقد تحريت فلم أعثر على ذكر هذا الوزير الاعرضاً في صدد ترجمة عبدالسلام المرعشي احد أعيان الجند بالشام وصاحب الحول والطول في ذلك العهد ٠ قال المحبي : وكان عبدالسلام لما وجهت نيابة الشام لمرتضى باشا الكرجي ثانيةً في سنة سبع وستين والف وتصرف بها متسلمه اضطرب لذلك اضطراباً شديداً لما كان قد وقع له من المعاداة في توليته الاولى فأخذ يدبر أشياءَ لمدافعته ثم أداه اجتهاده الى ان جمع جمعاً عظيماً في الجامع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأُموي وأَحضر اكثر اهل البلدة وذكر لهم ظلمه وأَشار عليهم بان لا يرضوه حاكماً عليهم وكان نائب الشام السابق المعروف بالسلاحدار لم يخرج بعد من دمشق وكان مقيماً بالميدان الاخضر فذهب القوم اليه وأبرموا عليه ان يبقى نائباً وكتبوا في هذا الشأن عروضاً ومحاضر وأرسلوها الى الابواب السلطانية وخرج متسلم مرتضى باشا هارباً ولما وصل اليه وهو في الطريق ارسل الى الباب السلطاني يعلمهم بما وقع فقرر في نيابة الشام بخط شريف فلم يمكنوه واظهروا الممانعة وجمعوا جمعاً عظيماً من أوباش الشام وعزموا على محاربته وطلعوا الى قرية دوما وهم في جيش عرمرم وكان مرتضى باشا وصل الى القطيفة فلما سمع بخبرهم ولى راجعاً ولم يدخل دمشق » اهـ . فيظهر من هذا ان مرتضى باشا عين لنيابة الشام مرتين الاولى في سنة ١٠٥٨ حينما جاء معه أَولياجلبي ودخل بموكب عظيم واستقبلته جنود دمشق وأَعيانها استقبالاً فخماً كما سيأتي ذكره . على ان هذا الباشا كان على مايظهر جباراً عاتياً فعزل بعد سنة لكنه عاد للمرة الثانية في سنة ١٠٦٧ فلم ترض به جنود دمشق وأهلها واضطروه للرجوع فتقمت الدولة بسبب ذلك على عبد السلام المذكور ورفقائه الذين قادوا هذه الفتنة وكان من جملتهم الامير منصور الشهابي وابن عمه الامير علي فقتلتهم جميعهم تباعاً وصادرت أموالهم وأملاكهم وفاقاً لعوائد تلك الايام .

أما الرحلة فهي كما يأتي :

كان أَولياحلبي يتدبر قضاء فريضة الحج فانتهز فرصة سفر مرتضى باشا المعين نائباً على الشام فالتحق بقافلة الباشا المؤلفة من مئات الحواشي والاتباع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والجند والوف الركائب والبغال المثقلة بالعتاد والامتعة وغادر مدينة اسكدار في غاية شهر شعبان سنة ١٠٥٨ (١) وراح يتنقل مع تلك القافلة في بلاد الاناضول كأزنيق واسكي شهر وآق شهر وقونيـة وآذنة ومسيس « المصيصة » وغيرها الى أن أشرف على خليج الاسكندرونة وسار موازياً شاطئ البحر الرومي فوصل الى «بيّاس» وهي الآن آخر بليدة تركية متاخمة لبلاد الشام الحالية (٢) .

(١) في هذه السنة جلس السلطان محمد خان الرابع على كرسي آل عثمان وهو صبي ابن سبع سنوات .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان : بيّاس مدينة صغيرة شرقي انطاكية وغربي المصيصة «وصحيحه انها شمالي انطاكية وجنوبي المصيصة» بينها قريبة من البحر بينها وبين الاسكندرية «وصحيحه الاسكندرونة» فرسخان قريبة من جبل اللكام . قال البحتري :

ولقد ركبت البحر في أهواله ... وركبت هول الليل في بيّاس
وقطعت أطوال البلاد وعرضها ... ما بين سندان وبين سجاس

والى الشمال الشرقي من بيّاس الكنيسة السوداء والهارونيـة نسبة الى هرون الرشيد الذي اختطها وكانتا من الثغور في طرف جبل اللكام قاله ياقوت الحموي في المشترك . وكذلك كان في هذه الكورة التي تدعى قيليقية التابعة الآن لجمهورية تركية قلاع عديدة ذكرت مراراً في التـاريخ الاسلامي كانت تتعاورها أيدي المسلمين والأرمن والروم في حروبهم وغاراتهم مدة قرون الى ان ثبتت في يد الترك ذكرمنها ابوالفداء في تقويم البلدان أسماء سيس التي كانت عاصمة ملك الارمن والمصيصة «مسيس» على جانب نهر جيحان بناها ابوجعفر المنصور واياس على الساحل وبرس برت شمالي سيس وتل حمدون بالقرب من جيحان وفي شرقي هذا التل حصن حموص وسرفند كار وفي شمالي جيحان عين زربة « آناوارزا» هذا عدا عن آذنة وطرسوس وهذه على مقربة من الثغور أوالدربندات في جبال طوروس التي كانت تفصل بين المسلمين والروم . وهذه البلاد كان يدعوها المسلمون الثغور ثم دعوها ببلاد ابن لأون ملك الارمن . وقد تغيرت اسماء اكثر هذه القلاع الآن واصبحت تعرف باسماء تركية كطوبراق قلعة وبيلان قلعة وقره سيس قلعة الخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد وصف قلعة بيّاس ودورها وبساتينها ودار مكسها وميناءها وخانها وجامعها الذي بناه محمد باشا الصوقوللي الصدر الاعظم الشهير وأثنى على اهلها لانهم كانوا يردون عادية قرصان البحر ويحرسون المسالك والمضائق الممتدة شمالي بياس وجنوبها من شر لصوص الجبال ويسهلون سبيل الحجاج والتجار المارين ببلدتهم من بر الترك الى بر الشام وبالعكس ونوّه بشدة حرها في الصيف ورداءة هوائها واضطرار أهلها الى الاصطياف في النجود والهضاب المحيطة بهم وذكر ان الوفًا من الاكراد والتركمان أصحاب قطعان الغنم والماعز يتسلقون هذه النجود في فصل الصيف ويطلقون مواشيهم ترعى أعشابها الغضة وتشرب مياهها النميرة(١) .

(١) هذه نجود جبل اللكام الذي يدعوه الافرنج آمانوس وعامة الترك كاورطاغي ودعته حكومتهم جبل البركات ، وسلسلة اللكام تعد عند اكثر الجغرافيين التخم الطبيعي بين الشام والاناضول ويمر الآن في وسطها من الغرب الى الشرق الحد الذي اعتبر رسميًا بين جمهورية تركيا وبلاد الشام الواقعة تحت الانتداب الافرنسي ، وهي تنفصل في الشمال عن جبال مرعش وسيس بنهر جيحان وتتجه بخط مستقيم الى الجنوب حتى مضيق بيلان الذي يفصلها عن جبل الاحمر الممتد شمالي انطاكية وغربيها ، وفي هذه السلسلة الشامخة أودية ووهاد سحيقة ونجود ومرابع عالية صالحة للاصطياف ورعي الماشية لجودة هوائها وغزارة مياهها وروعة مشاهدها وطيب أعشابها ووفرة حراجها مما لانظير له في لبنان أو غيره ، وفيها قمم شاهقة أعلاها الصخرة البيضاء (آق قيا) ٢٥٠٠ متر ومغبر اوموغر ٢٢٦٧ متراً يجللها الثلج في معظم أيام السنة وتشرفان على سهول حلب وآذنة على السواء ، وفيها مضائق كانت تعبر منها في العصور الغابرة جيوش الغزاة والفاتحين من الشمال الى الجنوب وبالعكس ، وكان القدماء ولاسيما الارمن أقاموا في النقاط الحاكمة على هذه المضائق الوعرة تلاعًا كانوا يشحنونها بالمقاتلة لمنع الاعداء من المرور ، منها في الشمال وفي منتصف الجبال « قلعة حجر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال اوليا جلبي : وبعد ان مكثنا في بياس يومين غادرناها واجتزنا في جنوبها جسراً متقن الصنع ذا أربع منافذ من آثار محمد باشا الصوقوللي ووجدنا في قربه على شاطئ البحر تكية باسم الشيخ عبد القادر الكيلاني عامرة الاركان

شغلان» صعبة المرتقى تشبه عش النسر بمنعتها ورفعتها تعلو عن سطح البحر ١٢٥٠ متراً ومثلها في الشمال وعلى مقربة من اسكندرونة «قلعة المركز» وفي الشرق على حاشية سهل العمق « قلعة دربساك » ومثلها في الجنوب «قلعة بغراس» . ولما جاء الصليبيون استولوا على هذه القلاع وأقاموا فيها الفرسان الهيكليين وظلت تتعاورها أيدي الارمن والروم وصليبيو انطاكية الذين لم ينفكوا يتنازعون أمرها فيما بينهم كما ان المسلمين في عهد بني حمدان وبني أيوب والمماليك لم يتوانوا عن مهاجمتها حينما كانوا يغزون بلاد الارمن والروم ويقابلهم هؤلاء بالمثل فيتخذ كل منهم هذه القلاع نقاطاً للاستناد عند زحفه شمالاً أو جنوباً وظل هذا الأخذ والرد مستمراً الى ان جهز الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ جيشاً لغزو سيس قاعدة بلاد الارمن اذذاك وولى قيادة هذا الجيش الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر محمود صاحب حماة فجاء فاستولى على هذه القلاع وأباد الفرسان المرابطين فيها ودمرها ثم أتم غارته على سيس وحواليها ورجع ظافراً . هذا وكان جبل اللكام في اول عهد الاسلام موطناً لقوم عرفوا « في كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جرجومة عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقة قرب انطاكية وقد صالح الجراجمة المسلمين على ان يكونوا أعواناً لهم وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم يمالئونهم على المسلمين وخرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير الى الشام مع قائد الروم فتفرقوا في نواحي الشام لاسيما لبنان وعرفوا بالمردة فاضطر عبد الملك بن مروان الى أن صالحهم » ذكره في معجم البلدان . وسكان هذه الجبال الشاهقة في يومنا تركمان سنيون لا يزالون على الفطرة معروفون بصدق المعاملة يقطنون في الشتاء في قراهم المخبأة في بطون الفجاج قرب السفحين الغربي والشرقي وفي الصيف يصعد أكثرهم كما قال أوليا چلبي — الى المرابع والنجود المرتفعة لرعي الماشية وقطع الحطب ويحذو حذوهم جم غفير من أكراد حرة اللجاة في شمالي العمق وهم أهل وبر واكارون . وجبال اللكام كانت وما تزال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آهلة بالدراويش . ثم استأنفنا المسير نحو القبلة فمررنا بتكية ثانية أصغر من الاولى فيها بضعة دراويش ينتسبون الى الطريقة البكتاشية ثم اجتزنا جسراً نصب على نهر تجتمع مياهه من الاودية المنحدرة من أعالي الجبال التي ذكرناها وتصب في البحر . وعلى مقربة من هذا الجسر مررنا بقلعة تدعى «قلعة المركز» تبعد عن البحر رمية سهم بنيت في سفح جبل عال مربعة الشكل ذات بناء جميل قيل أنها من عهد القياصرة(١) . ولما مر السلطان سليم من هذا المكان سنة ٩٢١

غنية بالحراج (١٥٠٠٠ هكتار) على الرغم من انكباب الامم الغابرة على قطعها لبناء الاساطيل والمعابد والقصور وهي قد اشتهرت بوفرة مافي منحدراتها الشرقية والغربية من الصنوبر الحلبي والارز والشوح والسنديان والبلوط والزان والقيقب والاشجار المثمرة البرية كالتفاح والأجاص والزعرور ويكثر الدلب والصفصاف المستحي والجوز والدردار في الأودية الرطبة كما ان الزمزريق والقطلب ولاسيما اللبنة منتشرة وكثيفة في اكثر الاماكن وفي قرب بياس في لواء اسكندرونة منجم كبير يحوي معادن مختلفة كالحديد والكروم والآميانت والمانغانز والنحاس لكنها بنسبة قليلة لا تفي بنفقات الاستخراج . وقد عرف القدماء هذه المعادن واستثمروا منها معدن الزاج الذي ذكر المؤرخون وجوده بين بياس وبوقة .

(١) اذا خرج السائح من بياس موازياً شاطئ البحر يصادف على بعد كيلومتر منها نهر بياس الذي ذكر أوليا چلبي جسره وفي ضفته اليسرى يبدأ التخم الذي اعتبر الآن رسمياً بين بلاد الشام وبلاد الترك وهذا التخم يسير شرقاً بموازاة ذلك النهر متسلقاً قمة مغبر هابطاً ضفة نهر الاسود اليسرى . ويصادف السائح في طريقه سهلاً كثير الحصى والبلاّن منبسطاً بين سفوح جبل اللكام والبحر وفيه يمر النهر المسمى (دكرمن دره) وقد ذكر اوليا چلبي جسره . ويرتأي بعض الباحثين ان معركة ايسوس الكبرى التي وقعت بين دارا ملك الفرس واسكندر المكدوني وغلب فيها دارا وكانت سبباً لاستيلاء الاسكندر على بلاد الشام حدثت في هذا السهل الواقع جنوبي بيّاس والذي عليه اكثر المحققين بانباوتعت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو ذاهب للاستيلاء على مصر افتتحها بالامان وهي الآن تابعة لنيابة بياس وفيها قائد وعدة جنود وحولها كروم وبساتين وفي داخلها جامع وبضعة بيوت لسكنى الجنود .

وبعد ان اجتزنا هذه القلعة مررنا في ساحل البحر بمضيق يدعى صقال طوتان (قابض الذقون) لاتنقطع والعياذ بالله منه اللصوص وقطاع الطريق وجلهم من أشرار الاكراد الذين يهبطون من ناحية الجومة من أعمال حلب . لذلك يجدر بالمجتازين من هنا ان يكثروا من الحيطة والحذر . وبعد ان مررنا بمكان يدعى آجي جاي (النهر المر) وصلنا بعد ساعتين ونصف الى قلعة اسكندرون (١) .

شمالي بياس بالقرب من نهر دلي شاي . اما التكايا التي ذكرها الچلبي فقد دثرت . وبعد مسير عشرة كيلومترات يصادف السائح أطلال « قلعة المركز » التي ذكرها الچلبي ماثلة بجدرانها وببعض أبراجها الضخمة وهي احدى قلاع جبل اللكام المنيعة التي نوهنا بها وبمصيرها وقل من يعرفها الآن بهذا الاسم بل باسم القرية القريبة منها « صاري سكي » وكان الصليبيون يسمونها حصن كاستيم أوحصن كودفروا وثمة في شمالي هذه القلعة أطلال جدار يمتد من الغرب الى الشرق يدعوه الفرنج جدار السلوقيين لايزال قسم منه قرب البحر سالماً في الجملة وقسم آخر في سفح الجبل وكان هذا الجدار على مايظهر لسد الطريق في وجه الجيوش الزاحفة من الشمال الى الجنوب او بالعكس .

(١) بعد مغادرة قلعة المركز يضيق السهل الممتد في الساحل تدريجاً الى ان يقترب ذيل جبل اللكام من البحر فيؤلف معبراً ضيقاً كان يسميه الرومانيون باب قيليقية والصليبيون Portella وكان يعتبر هذا المضيق في العصور الغابرة الحد الفاصل بين سورية وقيليقية وكان فيه للملوك الارمن دار للمكس . وقبل الحرب العامة مد الالمان في وسطه سكة الحديد الآخذة من اسكندرونة الى (طوبراق قلعة) فحلب . ويعلو الصخور التي عن يمين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصف اسكندرونة — سميت هذه البليدة باسم بانيها اسكندر الكبير وبعد ان خربتها عوادي الزمن عمرت في اول عهد الاسلام(١) ثم خربت مرة أخرى وصارت ملجأ لقطاع الطرق وقرصان الافرنج فاسترعى هذا

المضيق ويساره أعمدة رخامية أثرية يعرفها الملاحون باسم أعمدة يونس ويزعمون ان الحوت الذي ابتلع النبي يونس عاد فلفظه على شاطئ هذا المضيق . على حين انها ليست الا بقايا باب كبير من آثار اليونانيين او الرومانيين كان معداً لسد المضيق وفتحه في وجه المارين والعابرين او للاشارة اليه . وفي رواية ان جسد الاسكندر بعد موته وضع فوق هذا الباب ومرت من تحته قواده وجحافله . وقلعة المركز على قيد غلوة من هذين العمودين ولا يزال سكان هذه البلاد وهم أتراك يدعون المضيق والقلعة معاً باسم صقال طوتان .

(١) قال ابو الفداء : باب اسكندرونة من جند قنسرين . قال احمد الكاتب : وباب اسكندرونة مدينة على ساحل البحر الرومي بالقرب من أنطاكية بناها ابن ابي دؤاد الايادي في خلافة الواثق . قلت ان اسكندرونة كانت موجودة قبل الاسلام . وقد ذكرها المؤرخان اليونانيان هرودتس و كسنفون باسم ميرياندروس . الا ان هذه كانت خارج البلدة الحالية والى الجنوب الشرقي منها وكانت مستعمرة لفريق من الفينيقيين . وقد اكتشفوا في الايام الاخيرة كثيراً من آثار ميرياندروس وفسيفسائها . اما اسكندرونة الحالية فهي بلا ريب من عهد الاسكندر شيدها خلفاؤه وسموها باسمه لتمجيد النصر الباهر على دارا ملك الفرس في وقعة ايسوس . ولعل ابن ابي دؤاد الذي ذكره احمد الكاتب رممها بعد خراب قد يكون أصابها في ذلك الحين . يبلغ عدد سكانها الآن ثلاثة عشر الفاً وهم بازدياد اكثرهم من الأرمن اللاجئين من بلاد الترك بعد سنة ١٣٤٠ . وقد جعلت منذ احتلال الافرنسيين قاعدة لمتصرفية شبه مستقلة تتبع حكومة دمشق في بعض الامور وتشمل الجزء الشمالي الغربي من ولاية حلب القديمة وأُلحق بها ثلاثة أقضية اسكندرونة وأنطاكية وقرق خان وأُلحق بالقضاء الاول ناحية اسكندرونة وعرسوز وبالثاني نواحي أنطاكية والسويدية وعوافية وجبل موسى و كسب والاوردو وقصير الفوقاني والوسطاني والتحتاني والحرية وباثالث نواحي قرق خان وجاجيلر والريحانية وبيلان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحال نظر نصوح باشا الذي كان صدراً أعظم في زمن السلطان احمد خان فشرع ببناء قلعة حصينة في اسكندرونة ولكن السلطان نقم عليه بعد حين لتهامل بدى منه فقتله وبقيت القلعة دون اكمال · وحبذا لو أكملت هذه القلعة وجدد عمران اسكندرون لأنها فرضة بحرية ذات مكانة وقريبة من حلب نحو مرحلتين · وقد علمت انه يزورها في كل عام من سفن المسلمين والافرنج اكثر من مائتي غليون · هذا وحرمان هذه الفرضة من قلعة جعل الافرنج يتقاعسون عن دفع المكوس الى الملتزم الذي التزمها بمائتي حمل(١) · ولاسكندرونة قاضي يجبي من قراها خمسة أكياس(٢) ولها ميناء لطيف لولا ان غربيه مكشوف يأتي بالرمل فيحول دون اقتراب السفن من الشاطئ ويضطرها للرسو على بعد رمية مدفع · والى الغرب من ميناء اسكندرونة وعلى بعد ٢٦٠ ميلاً بحرياً(٣) يوجد رأس اندراوس في جزيرة قبرص وقد قيل لي انه اذا اعتدل الهواء وصفا أديم السماء ترى من هنا جبال قبرص المجللة بالثلوج · اما انا فلم يتسن لي رؤية ذلك · ويكثر وجود الافرنج والروم في اسكندرونة لهذا لاتجد فيها جامعاً او خاناً او حماماً او سوقاً سوى الخانات فانها كثيرة · وقد اعتاد الصادي والغادي الى اسكندرونة ان يمكث ليالي الشتاء في هذه الخانات حتى صارت تشبه الخانات · ويجلب الماء الى اسكندرونة على ظهور الحمير من

(١) اذا كان الحمل مائة الف قرش فالمائتا حمل تعادل عشرين مليوناً من القروش ولعل الچلبي مبالغ بهذا المبلغ · (٢) الكيس خمسمائة قرش · (٣) صحيحه مائة وخمسة أميال ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نبع في خارجها يدعى نبع القوافل(١) وقد اعتاد الداخلون الى هذه البلدة والخارجون منها ان يضربوا خيامهم قرب هذا النبع . وفي اسكندرونة وكلاء اوقناصل لسبع دول . اما القناصل الاصليون فمركزهم في خان الافرنج في حلب . ولما كانت الاسكندرونة فرضة بحرية وباب تجارة لحلب وضواحيها تجد بجانب جمركها مخازن عظيمة يقوم فيها تجار الافرنج بالبيع والشراء دون انقطاع . حتى انه لما مر مولانا مرتضى باشا من هنا بموكبه الحافل كان من سفن الافرنج ستة وعشرون غليوناً راسياً في الميناء فأطلق كلها المدافع ترحيباً بجنابه ودام الاطلاق مدة غير يسيرة حتى كادت الغلايين لا ترى من كثرة النار والدخان . وتحيط باسكندرونة مستنقعات(٢) . ثم قمنا من هنا مع الركب فمررنا بنبع القوافل وسرنا نحو القبلة نحاذي الساحل تارة ونصعد في الجبال أخرى وكان المطر ينهمر علينا بشدة الى ان وصلنا الى بليدة تدعى بيلان(٣) .

(١) يدعى هذا النبع الآن رأس العين ومذ ماتقدمت اسكندرونة في العمران مدت الانابيب الحديدية من رأس العين الى البلدة وأُسيلت فيها المياه واستراحت الحمير من النقل .

(٢) كانت هذه المستنقعات ذات مساحة عظيمة تحيط باسكندرونة وتتخلل أحيائها وأزقتها وتجعل هواؤها وبيلاً والاقامة فيها خطرة لشدة الوبالة الناشبة في سكانها . دام هذا الحال الى أوائل القرن الحاضر اذ مدت الحكومة العثمانية سكة حديدية صغيرة كانت تنقل بها التراب من الآكام القريبة وتطمر بها تلك المستنقعات وظلت العناية بالطمر قائمة الى الآن حتى زال كثير منها وحسن المناخ عما قبل وازداد عمران الاسكندرونة .

(٣) الطريق بين اسكندرونة وبيلان وطوب بوغاز (٢٧ كيلومتراً) معبدة ومعتنى بها وهي من أنزه الطرق وأجملها . يغادر السائح مستوى البحر في اسكندرونة حيث الحرارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصف بيلان ٠ — وبيلان مركز قضاء يتبع أيالة حلب فيها نحو ثلاثة آلاف من السكان ودورها مبنية من الطين على طرفي جبلين متقابلين بينهما واد ٠ وهذه الدور يركب بعضها فوق بعض وتتخللها أزقة ضيقة ٠ وهواء

والرطوبة شديدتي الوطأة فيمر من أمام رأس العين وعلى قيد غلوة منه المكان الذي يظن انه كانت فيه مدينة ميزياندروس ثم يشرع بتسلق أعضاد جبل اللكام وكلما اعتلى يجد الهواء العليل والمشهد النضر وفي الكيلومتر العاشر يرى على يمينه الطريق الصاعدة الى قرية صوغوق اولوق (علوها ١٠٠٠ متر وسكانها أرمن) وفي غربيها قرية النار كيزلك (علوها ٥٠٠ متر وسكانها أتراك) ويقصد اهل اسكندرونة وحلب هاتين القريتين للاصطياف حيث يجدون المناخ الطيب والمنظر الجميل والحراج الغياء والفنادق الجميلة ناهيك عن زرقة البحر ومرآه الرائع وفي الكيلومتر (١١) مفترق الطريق الصاعدة الى قرية عاتق الارمنية (علوها ١٠٠٠ متر) وهي وان لم تضارع جارتها بالحراج والفنادق لكنها تفوقها بالينابيع الباردة وجمال المناظر في الصرود الشاهقة بقربها كثنية كوزبل (١٦٠٠ متر) وقمة شاكشاك (١٨٣٥) وفيها مشاهد تأخذ بمجامع القلوب حقاً ٠ فالواقف اذا تطلع الى الشرق يرى آكام جبل اللكام تنحدر أمامه نحو سهل العمق ومستنقعاته وبحيرة أنطاكية الزرقاء ومافي شرتها من الجبال والهضاب كجبل الزاوية والاعلى وباريشا وسمعان والكرد وغيرها الممتدة في الأفق البعيد حتى سهول حلب الغربية واذا تطلع نحو الشمال يرى قمماً في جبل اللكام تناطح السحاب كألماطاغ (١٨٣٥) ودازتبه (١٧٠٧) وآق قيا (٢٥٠٠) ومغبر (٢٢٦٧) ويرى بينها نجاداً ومرابع متسعة انتشرت فيها الوف من قطعان الغنم والماعز ترعى الاعشاب والانجم الغضة وفي الغرب سلسلة جبال طوروس التي تنفصل عن آمانوس بسهول قيليقية الفسيحة والبحر الخضم وقد سترت الغيوم البيضاء زرقته فزادت في روعة المشهد ٠ وهذا ماحمل ياقوت في معجم البلدان ان يذكر جبل اللكام قائلاً : هو الجبل المشرف على انطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور اه ٠ هذا وفي الكيلو متر (١٣) يصل السائح الى بيلان ٠ وهي بليدة جميلة المنظر ، طيبة الهواء ، غزيرة المياه (علوها ٥٠٠ متر) يشطرها الوادي السحيق الفاصل مابين جبل اللكام وجبل الاحمر الى شطرين بنيت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيلان جيد وماؤها عذب وصحة أهلها حسنة وفيها مسجد جميل له قبة مكسوة بالرصاص وامامه خان عامر وفيها ايضاً حمام وحوانيت عديدة وينتج فيها فواكه وأعناب لذيذة فهي صالحة في الجملة للاصطياف ثم ان في الجبال التي تعلوها نجود اشتهرت بنقاء هوائها وطيب مراعيها (١) ثم غادرنا بيلان وسرنا

دورها كما قال الچلبي في سفحي الوادي بعضها فوق بعض ، سكانها ٣٠٠٠ ثلثاها من الترك والثلث من الارمن . لم يذكر جغرافيو العرب بيلان اذ لم تكن عامرة في زمنهم وربما هي التي كانت تدعى باب اسكندرون . قال ابو الفداء : باب اسكندرون في زماننا هو دربند بلاد سيس من جهة حلب وهو على دون مرحلة من بغراس وليس هناك مدينة بالاصالة ولا قرية وبين بغراس وباب اسكندرونة اثنا عشر ميلاً اهـ . قلت والعمران كان منحصراً بقلعة بغراس التي سمى العرب المضيق اوالدربند بها في حين ان الافرنج سموه باب سورية (Pylea Syriae) ومنه مرت في العصور الغابرة اكثر جيوش الفاتحين الواردين على الشام اوالخارجين منها . وبيلان تقع في مبدإ هذا المضيق العظيم الذي يفصل جبل اللكام عن جبل الاحمر وربما كان اول من سعى في عمران بيلان هو السلطان سليمان القانوني فقد أعجبته مكانتها من الوجهة الحربية والتجارية فبنى فيها في سنة ٩٦٠ هـ الجامع والخان اللذين ذكرهما أوليا چلبي ووضع جنوداً لحفظ المضيق وأسكن عدداً من التركمان جلبهم من الاطراف ومازال هؤلاء يزدادون وبيلان تتقدم في العمران وصارت ممر القوافل والجيوش بعد ان كان الممر بعيداً عنها قليلاً الى الشمال وصار اهل اسكندرونة يلجأون اليها في الصيف للتمتع بهوائها ومائها اللذين نوّه سائحنا بجودتهما . وما برحت بيلان في عهد بني عثمان مركزاً للقضاء الى ان وفدت في سنة ١٣٠٠ هـ ومابعدها جموع الارمن على اثر إخراجهم من بلاد الترك فاسكنت الحكومة الافرنسية طائفة منهم في موضع (قرق خان) في غربي سهل العمق وعلى طريق حلب المعبّدة فعمروا هذا الموضع الذي لم يكن الى ذلك الحين شيئاً مذكوراً وجعلوه بليدة حافلة بالدور والحوانيت والفنادق والمقاهي وغيرها ثم نقلت مركز القضاء اليه في سنة ١٣٤٢ هـ وتركت بيلان قاعدة لناحية فأفل نجمها من ذلك الحين .

(١) يعني الچلبي نجود جبل الاحمر المعروف هنا بقزل طاغ ويعده البعض تتمة سلسلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نحو الجنوب نصعد عقبات وتهبط أودية الى ان اجتزنا مضيقاً فيه جنود مكلفون بحفظ الدروب(١) وشاهدنا في يميننا على بعد رمية مدفع «قلعة بغراس» وهي

آمانوس ويحسبه آخرون مستقلاً عنه بمضيق بيلان . وهذا الجبل وفروعه الغربية الممتدة من جنوبي بيلان الى ميناء عرسوز ورأس الخنزير قد اشتهر مثل جبل اللكام بما في منحدراته وآطامه من حراج الشجر الغضيض والمرابع الغضراء والمشاهد الجميلة والينابيع السارية مع شيء من الضباب الذي يخفف وطأة الحر في الصيف . واكثر حراجه مؤلفة من الصنوبر الحلبي والصنوبر الاسود والبطم والبلوط والقطلب والشوح والجوز وغيرها ويستخرج القطران من أشجار الصنوبر بكثرة . وفي هضابه المرتفعة آثار معادن مختلفة لم تستثمر بعد . ويقطن النصيريون في السهول الساحلية المصاقبة لسفوحه الغربية بين اسكندرونة وعرسوز وأشهر قراهم قره آغاج وهم فلاحون ويقيم التركمان في النجود والهضاب لاسيما حول غابات كسريك وقره كوز وجنكان وبش اولوق ومهنتهم قطع الحطب وصنع القطران وهم على الفطرة وصدق المعاملة وتربي قرى الارمن في جبل موسى غربي انطاكية الى الشمال دود الحرير ويصنع أهلها الامشاط من خشب القطلب . وفي سني الحرب العالمية لما أجبرت الحكومة العثمانية هؤلاء على الهجرة كما جرى لبقية الارمن اعتصموا بجبلهم بين الحراج وحاربوا الحملة التي هاجمتهم واستبسلوا الى ان توصلوا للاتفاق مع سفن الحلفاء فركبوها رجالاً ونساءً وانتقلوا الى ساحل مصر وهناك الفوا كتائب الانتقام الارمنية التي زحفت مع جيش الجنرال اللنبي سنة ١٩١٨ ودخلت مدن الشام وكان منها ماذكره المؤرخون .

(١) بعد مغادرة بيلان يظل السائح صاعداً في طريق طوب بوغاز الى الكيلو متر (١٦) حيث يلاقي مضيق بيلان او دربند بغراس كما كان يدعى « علوه ٧٠٠ متر » فيشرف من هذه الروابي النضرة على منظر غاية في الروعة والبهاء فهو يرى في الشرق سهل العمق ومستنقعاته وبحيرته والجبال والآكام المحيطة به فيحلق في سماء التفكير ويتذكر كيف مرت من هنا جحافل الأشوريين والفرس والمقدونيين والرومانيين والبيزنطيين والمسلمين الأولين بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي والحملة الصليبية الاولى وجيوش المماليك والتركمان والتتار وابراهيم باشا المصري الذي كسر فيه سنة ١٢٤٨ الجيش العثماني بقيادة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلعة قديمة تعاورتها أيدي كثير من الملوك الى ان افتتحها السلطان سليم بالامان حينما مر بهذا الطريق وهو ذاهب لقتال الملك قانصو الغوري في مرج دابق . والقلعة صغيرة القد مخمسة الشكل مبنيـــة على هضبة اتخذت قضاءً تابعاً لايالة حلب وأُقيم فيها كتخدا وقائد جند الانكشارية ومحافظ القلعة وجنود وفيها جامع وخان وحمام وسوق صغيرة(١) على انها لانحرافهـا عن الطريق ليست

الســردار حسين باشا . وبعد المضيق يبدأ الطريق بالانحدار ففي الكيلو متر ٢٠ موقع جقالي وفيه مخفر للدرك يؤمنون السابلة في هذه المسالك الوعرة وهنا يلمح السائر على يمينه (قلعة بغراس) رابضة فوق رابية تشرف على هذا الطريق .

(١) قال ابو الفداء : بغراس من جنـد قنسرين ذات قلعة مرتفعة ولها اعين ووادٍ وبساتين قال ابن حوقل وبغراس على طريق الثغور وكان بها دار ضيافة لزبيدة وهي في الجبل المطل على عمق حارم وفي معجم البلدان لياقوت بغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ ذكرها البحتري في شعر مدح به احمد بن طولون الذي حاصر سيما الطويل التركي صاحب انطاكية في سنة ٢٦٤ وجرت بينهما حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم قال البحتري :

سيوف لها في كل دار غداً ردى وخيل لها في كل دار غداً نهب
علت فوق بغراس فضاقت بماجنت صدور رجال حين ضاق بها درب

كانت تدعى هذه القلعة في زمن الروم حصن لوقا وهي في يومنا خراب في الجملة على ان اطلالها لا تزال ماثلة وهي اكبر مما ذكره الچلبي كانت تسع زهاء الفي جندي وكان لها سوران وكنيسة وبهو كبير واربع طبقات من القاعات المعقودة سقوفهـا وكثير من المستودعات والاصطبلات والغرف والآبار وكان لها قناطر علوها ١٨ متراً تأتي بالماء من الجبال الى القلعة والبناء الحالي اسلامي يتخلله بعض آثار للروم وللصليبيين . قال الكولونل جاكو مؤلف كتاب انطاكية ماخلاصته : ان لقلعة بغراس مآسي مفجعة في تاريخ المسلمين منها ان الروم لما جاؤا بقيادة القيصر نيكوفورفوكاس في سنة ٣٥٨ هـ وغزوا بلاد الشام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عامرة وانحصرت الآن شهرتها بزهورها الفيّاحة لاسيما بالسنبل والمسك الرومي وأهلها يقلعون من جبالها وحدائقها أبصال الزهور الجميلة فيحملونها ويبيعونها في بقية البلدان وقد يصلون بها الى استانبول . «للبحث صلة»

وصفي زكريا

حتى حمص وعرقة وطرابلس وجميع الساحل واعملوا فيها النهب والحرق والخراب عادوا ومعهم من السبي مئة الف صبي وصبية من ابناء المسلمين ولما ساقوا هؤلاء المساكين امامهم ليأخذوهم الى القسطنطينية اشتدت انواء الشتاء وسدت المسالك في جبال آمانوس وطوروس فاضطروا للوقوف بهم في قلعة بغراس . ولما لم تكن الأقوات ووسائل الايواء والتدفئة كافية حصدهم الجوع والبرد والامراض وصارت سهول العمق مقابر لهم اه . قلت وبعد ثلاث سنوات تمكن الروم من فتح انطاكية بخيانة اهل بغراس الذين بعد ان التجؤا الى انطاكية تقبوا الأسوار ومكنوهم من الدخول . وحينما جاء الصليبيون في الحملة الأولى اخذوا بغراس فيما اخذوه من بلاد الشام الشمالية وجعلوها مع تلعة دربساك وحارم وارتاح مخفراً امامياً لانطاكية الى ان جاء الملك الناصر صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ فحاصر بغراس ودربساك وقاتلها بشدة حتى افتتحها بالامان الا انه بعد بضعة اعوام جاءها مقدم الأرمن ابن لأون فدخلها وظلا بيده تارةً وبيد الصليبيين أخرى الى ان استولى الملك الظاهر بيبرس عليها نهائياً حينما فتح انطاكية عنوةً سنة ٦٦٨ . هذا ولم يبق من القرية في اسفل القلعة من العمران الذي ذكره الچلبي سوى ٣٠ — ٤٠ دار منتشرة على طول الوادي والعيون والبساتين التي ذكرها ابو الفداء يسكنها فلاحون من النصيرية والتركمان ولم أدر اذا كانوا كما قال الچلبي يتاجرون حتى الآن ببصل الزهور أم لا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبقرية الجاحظ (١)

—((0))—

تبين لنا في كلامنا على عصر الجاحظ ان الجاحظ متصل بكل أفق من آفاق هذا العصر، فلئن استفاضت حرية التفكير في عصره فما غاب عن هذه الحرية فقد كان يرجع الى عقله في كل مذهب من مذاهبه، ولئن شاعت الزندقة والخرافات والاباطيل في أيامه فما غفل عن التنديد بها والتقذر منها، بقي أن نعلم مقدار اتصاله بالناحية الثالثة من نواحي عصره، وهي جهة الانقلاب الفكري فما هو نصيب الجاحظ من هذا الانقلاب ؟ —

نقلت في أيامه كتب الهند وترجمت حِكَم اليونانيين وحوّلت آداب الفرس، فما هو حظ الجاحظ من هذا النشاط الفكري ؟ —

قد كنت ذكرت لكم في بعض المواطن ان الجاحظ انما هو كامل من الكملة وأردت بكملة الكامل ما يريده الافرنجة بكلمتهم Encyclopédiste فالجاحظ لخص معارف عصره على نحو ارسطاطاليس في القديم، وقد أشار بعض الافرنجة الى امتداد هذه العبقرية وانبساط مجالها فاستشهد أحدهم وهو البارون «كارادي فو» Baron Carra de Vaux في كتابه : أصحاب الفكر في الاسلام، بفصل الجاحظ في نفع الكتاب وهو الفصل الذي عقده في مقدمة كتاب الحيوان فدلّ على براعته في الانشاء فبعد أن ذكر البارون طائفة من هذا البحث قال :

«هذا بوجه التقريب نمط من أنماط فصول الجاحظ، ان في هذا كله مجموعاً قد يكون في بعض الأحيان غير منسجم ولكنه ملآن بالحوادث والأفكار، اني لا أجسر على أن

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أؤكد أن كل فصوله قد تكون خصيبة مثل هذا الفصل ولكننا قد نلاقي في كلها بعض الشيء ، ولنذكر ايضاً أن في رسائله الصغيرة قطعاً جديرة باستيقاف الباحثين وخليقة بدراسة خاصة ففي رسالة التربيع والتدوير تعرض لنا ولا أدري كيف يكون ذلك سلسلة طويلة فيهامسائل في كل أنواع الموضوعات والعلوم ، في التاريخ والأساطير وطبقات الارض كأن هذا كله انما هو برنامج «موسوعة» تدل على روح التطلع في القرن التاسع وفي رسالة الأسود والأبيض كلام موجز على تاريخ الزنج وذكر أبطالهم وفتوحاتهم ، كل هذا مجموع حوادث قلّ من يعرفها وقد تنفع في البحث عن روح الامم والأجناس . —

ان هذا النوع من علم الروح كثيراً مايستهوي الجاحظ فهو يرجع اليه من حين الى آخر فان عقله الغريب الميّال الى النقائض يحمله على النظر في الأمم التي لم يكن لها على أيامه مقام عال ، وعلى هذه الصورة ان لرسالته في مدح الترك فائدة ومن الممكن ان تكون هذه الرسالة اول الكتب التي توسّع أصحابها في الكلام على الترك وجعلوا لهم بعض الشأن فان خصائص الامم تشغل ذهن الجاحظ فهو يأتي على ذكرها في عدة مواطن . — »

* * *

خاض الجاحظ في كل باب من الأبواب فلم يتعاظمه الكلام على الاجتماع أو على الأخلاق أو على التربية والتعليم أو على الطبيعة أو على التاريخ الطبيعي أو على فلسفة اللغة الى غير ذلك من المذاهب التي تدلّ على سعة عبقريته غير أن استقصاء هذه الغرائب والعجائب قد يطول أمره ولكننا لامندوحة لنا عن الإلمام ببعضها حتى نعرف شيئاً من امتداد عقل الجاحظ . —

يتنقل الجاحظ على نحو ماتال البارون « كارادي فو » من فكرٍ الى فكر ولكنه يظل في هذه التنقلات صاحب نكتةٍ ، خفيف الروح ، محبوب النفس ، انه يلعب من دون ان يُضجر غيره في هذا اللعب . —

مرةً يخطر بباله باب من أجل أبواب الاجتماع في هذا العصر وهو الكلام على حقوق النساء فينبري للدفاع عن المرأة والمطالبة بتوفير حقوقها فكأنه نصير النساء في أيامنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه [١] :

« ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو باكثر ولكنا رأينا ناساً يَزْرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن اكثر حقوقهن وأن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام الا بان ينكر حقوق الأمهات والأخوال فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ولولا ان ناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخور لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب . — »

وقد قال في مقام آخر [٢] :

« ونحن وان رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء اكثر وأظهر فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الأمهات وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت أرى ان حق هذا أعظم فان هذه أرحم . — »

ومرةً يتغلغل في أعماق الجماعات فيقلّب النظر في أخلاقهم فلا يزال يمارس هذه الأخلاق ويدوّن في ذهنه نتائج مراسه وتجربته حتى يكشف الغطاء عن أسرارها فيقذف في هذا المعنى بالرأي الخمير الذي لا تزيده الايام الا قوةً وتمكنًا من هذا الباب كلامه على السفلة والوضعاء والمحقّرين الذين اذا صار اليهم شيء من الامر ظلموا وغشموا [٣] :

« والكِبْر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم فصار لا يعرف ذلك الا أهل المعرفة ، كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود ، والجملة ان من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ظهر من كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به فان كان ذميماً وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك واستظهرت به طبيعته بما يظن ان فيه رقع ذلك الخرق

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الاول ص ١٥٢ .
(٢) » » » » ص ١٦١ .
(٣) كتاب الحيوان الجزء السادس ص ٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحياض ذلك الفتن[1] وسد تلك الثلمة فتفقد ما أقول لك فانك ستجده فاشياً وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكاً من الحر وشيء قد قتلته علماً وهو اني لم أر ذا كبر قط على من دونه الا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه ٠ — »

ونحن اذا تفقدنا ماقاله وجدناه فاشياً كل الفشو حتى نكاد نلمس بايدينا هذه الأخلاق في كل جانب من جوانبنا فما أصدق قوله ، وما أبين رأيه ! لقد تعمق في روح الجماعات وأمعن في دراسة هذه الروح فبعد دراسته للحيوان وإظهاره لاخلاقه وطبائعه ومقابلته بين أصناف هذا الحيوان وكلامه على تعادي هذه الأصناف ، بعد هذا كله يرتفع الى أفق أعلى من أفق الحيوان فيصور عداوة الانسان ويوضح أسباب هذه العداوات فيقول[2] :

« وأسباب عداوات الناس ضروب منها المشاكلة في الصناعة ، ومنها التقارب في الجوار ، ومنها التقارب في النسب والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة والمساكن عدو للمسكن والفقير عدو للغني وكذلك الماشي والراكب وكذلك الفحل للخصي وبغضاء السُوق موصولة بالملوك وكذلك الوُضَلة بالمال الرغيب وكذلك الوارث والموروث ولجميع هذا تفسير ولكنه يطول ٠ — »

فلو أحببنا أن نمتحن قوله في هذه الايام لما وجدنا فيه انحرافاً عن الحق فليس آراؤه في الاجتماع الا بنات تجربته وعيانه وكما انه درس أخلاق الجماعات العامة فكذلك درس أخلاقهم الخاصة وأمعن في هذه الدراسة في مثل كلامه على البخل أو على الفسق اوعلى الحسد فلم يفته لون من ألوانها أو حركة من حركاتها أو هيأة من هيآتها ، ومن قرأ كتابه في الحاسد والمحسود تجلّت له قدرته على تصوير الاخلاق الخاصة فيكاد يكون في هذا الباب عالماً من علماء النفس يتصل باجزائها فيقاربها ويخالطها ويعرض لكل ناحية من نواحيها ويصف هذه الناحية أدق وصف ويصورها أتم تصوير حتى اذا فرغ من البواطن انتقل به الكلام الى الظواهر فراقبها وتأمل فيها واستخرج منها صفاتها البارزة وخصائصها الظاهرة ولولا اني اعتقد ان في نقل طائفة من هذا كله تشويهاً لمحاسنه لنقلتها لكم ٠ —

ماذا أنقل ، أأنقل هذا التعريف الوجيز الذي صوّر فيه بكلمتين داء الحسد فقال :

« والحسد أبقاك الله من داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر ، وصاحبه

(١) كذا في الاصل ٠ (٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٣٠ ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ضجر وهو باب غامض وامر متعذر وما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه في عناء ٠— »

فمن كان له صلة بحاسد من الحساد تجلت له صحة هذا التعريف وشعر بقوته فأيُّ حاسدٍ لم نر جسده منهوكاً وصدره ضجراً لايملكه غمض الليل ولا يذوق لذة البال فلا تقع عينه على صاحب نعمة الاَّ اضطربت كل أعصابه وكأن الطبيعة عادلة فقد جعلت في قلب الحاسد عقابه وما هذا العقاب الا النار التي تأكله ٠—

أم أنقل لكم حالة الحاسد الظاهرة :

« وما لقيت حاسداً قط الاَّ تبين مكنونه بتغير لونه وشخوص عينه واخفاء سلامه والاقبال على غيرك والاعراض عنك والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك ٠— »

أم حالته الباطنة وهي تنحصر في :

« تراكم الغموم على قلبه واستكمان الحزن في جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغص عمره وكدر نفسه ونكد عيشه ٠— »

أم تمكن الحسد من صاحبه وسلطانه عليه :

« ما خالط الحسد قلباً الا لم يمكنه ضبطه ولا قدر على تشحينه وكتمانه حتى يتمرد عليه بظهوره واعلانه فيستعبده ويستميله ويستنطقه لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ومن السلطان على رعيته ومن الرجل على زوجته ومن الآسر على أسيره ٠— »

أم وصفه علاج الحسد :

« فاذا أحسستَ رحمك الله من صديقك بالحسد فأقللْ مااستطعت من مخالطته فانه أعون الاشياء على مسالمته وحصّنْ سرّك منه تسلم من شره وبوائق ضره واياك والرغبة في مشاورته ولا يغرنك خدع ملقه وبيان زلقه فان ذلك من حبائل نفاقه فان أردت ان تعرف آية مصداقه فأدنين اليه من يهينك عنده ويذمك بحضرته فانه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل ومن خلاف المودة ماأنت عنه غافل وهو الحُّ في حسده لك من الذباب وأسرع في تمزيقك من السيل الى الحدور ٠— »

أم وصفه الحاسد نفسه :

« فهو الكلب الكلب والنمر النمر والسم القشب والفحل القطم والسيل العرم وان ملك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قتل وسبي وان مُلِك عصى وبغى حياتك موته وموتك عرسه وسروره يصدق عليك كل شاهد زور ويكذب كل عدل مرضي لا يحب من الناس الاَّ من يبغضك ولا يبغض الاَّ من يحبك عدوك بطانة وصديقك علانية ٠ — »

فاذا دققنا في هذه الأوصاف كلها تحقق عندنا ماقلته لكم من ان الجاحظ عالم من علماء النفس يبني علمه علي تجربته ثم يصف ماتوحي اليه هذه التجربة وصف صاحب صنعة وفن ٠ —

ولما كانت التربية والتعليم لاتبعد كثيراً عن الأُمور الاجتماعيـة لم يشأ الجاحظ أن يكون غريباً عنها فقد أدلى في هذا الباب بدلوه ، وعلى بعد عهده عنّـا وعلى تقدم علم التربية والتعليم في عصرنا استطاع الجاحظ أن يأتي فيه بمذاهب تكاد تكون من احدث المذاهب ، انكم تعالجون التربية والتعليم علماً وعملاً فأظن أن من أحدث قواعده التي تطبقونها في مدارسكم تدريب الطالب علي الاستنباط من دون أن يلجأ الى الحفظ لان الحفظ يسدُّ عليه سبيل الاستنباط فيجمد عقله ويبلد ذهنه فاليكم ما قاله الجاحظ في هذا الباب [1] :

« وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه واغفال العقل من التمييز حتى قالوا : الحفظ عذق النسيان ولأن مستعمل الحفظ لا يكون الاَّ مقلداً والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الحفظ أضرَّ ذلك بالاستنباط ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحفظ ٠ — »

وكتابه في المعلمين قد اشتمل علي القواعد المتبعة في التعليم في أيام الجاحظ فهو يصوّر لنا أساليب التربية والتعليم في العرب ٠

ولم يكن نصيب الجاحظ من علوم الطبيعة بأقلَّ من نصيبه من بعض فصول في الاجتماع والأخلاق والتعليم وما شابه ذلك ، الاَّ انه قد يكون في آرائه الاجتماعية أصح فكراً وأقلَّ خطأ اما في علوم الطبيعة فالجاحظ علي جلالة بعض أقواله فيها قد لا يسلم من خطأ ، فان علوم الطبيعة قد تقدَّمت في السنين الأخيرة ولكن الأخلاق واحدة في العصور قديمها وحديثها فالحسد الذي صوَّره الجاحظ انما هو شبه الحسد الذي نقاسي شرَّه في أيامنا ٠ —

(١) رسائل الجاحظ علي هامش المبرد للكامل — الجزء الاول ص ١٩ ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاض الجاحظ في كثير من علوم الطبيعة في الحكمة الطبيعية والكيمياء وتوسّع في التاريخ الطبيعي وخاصة في علم الحيوان ٠ —

فلننظر الى بعض آرائه في هذه العلوم ٠ —

انكم تعلمون انهم كانوا في عصر الجاحظ يمزجون الدين بالعلم معنى هذا أنهم اذا جادلوا في أمرٍ من أمور الدين استعانوا في بعض الأحوال بمذاهب العلم من هذا الشكل مجادلة الجاحظ لمجوسي عارضه وقد قرأتم هذه المعارضة في كلامنا على عصر الجاحظ في فصل حرية الفكر ، فمن قول الجاحظ :

« والماء ليس يجمد للبرد فقط فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون متغيرة فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ٠ وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون ٠ وقد خبرني من لا أرتاب بخبره انهم كانوا في موضع من الجبل يستعذبون به بلبس المبطنات ومتى صبوا ماءً في اناء وزجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته فليس جمود الماء بالبرد فقط ٠ ٠ ٠ »

اما اليوم فاننا لا نرضى بهذا الرأي على علاته فاننا اذا بحثنا عن جمود الماء قلنا يجمد الماء ويزداد حجمه اذا وصل الى درجة من الحرارة تبلغ الصفر في الميزان المئوي وجموده على صورة قطعة من جليد مركّبة من بللورات مسدّسات الشكل كثافتها ٠٫٩١٨ ٠ —

وكما تعرّض للحكمة الطبيعية فقد تعرّض للتاريخ الطبيعي فهو من أصحاب مذهب « التولد الذاتي » وله في هذا المعنى حكايات كثيرة من جملتها قوله [1] :

« والذباب من الخلق الذي يكون مرّة من السفاد والولادة ومرة من تعفن الاجسام والفساد الحادث في الأجرام والبلاء اذا عتق شيئاً في الأقباء استحال كله ذباباً فربما أغفلوه في تلك الأقباء فيعودون الى الأقباء وقد تطاير من الكوى والخروق فلا يجدون في الأقباء الا القشور والذباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً ثم يعود ذباباً وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقباً في داخله شيء كأنه مسحوق اذا كان الله قد خلق فيه الذبان وطيّره منه وما أكثر ما تجده فيه تام الخلق ولو تم جناحاه لقد كان طار ٠ — »

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وله من هذا الشكل آراء كثيرة في كتاب الحيوان فهو يؤمن بحدوث الخلق من غير ذكر ولا أنثى ويخلق الديدان من الجيف[١] ويخلق القمل من العرق والوسخ اذا علاهما ثوب أو ريش أو شعر[٢] :

لقد أبطل العلم هذه الآراء بمجامعها فقد دلت تجاريب « پاستور » Pasteur على ان «التولد الذاتي» أمر ممتنع فكل حجيرة مصدرها حجيرة مثلها وكل حي لا يلده الا حي مثله معنى ان الأحياء لا تلدها المواد العضوية أو المواد المعدنية ٠ —

وقد كان للمتقدمين معتقدات غريبة في هذا الباب فقد زعموا ان القمل يلده لحم الانسان وان الديدان يلدها اللحم الفاسد وان البق ينشأ عن اختمار الروائح وماشابه ذلك ٠ —

ان هذا كله قد ردّه العلم في أيامنا واذا وجدنا الديدان في اللحوم فمعنى هذا ان الذباب باض في هذه اللحوم فلو منعنا الذباب عن البيض لامتنعت الديدان فاذا ظهرت أحياء في مادة عضوية أو في مادة معدنية فهذه الأحياء ناشئة عن أحياء مثلها تغلغلت في هذه المواد وما اكثر تجاريب «پاستور» في هذا المعنى ٠ —

والى جنب هذه الآراء الباطلة قد تجد للجاحظ آراءً جليلةً في العلم تكاد تكون من أحدث الآراء فالحيوان في بيئة مايكون تركيب خلقته مناسباً لهذه البيئة فمن قول الجاحظ في الضب[٣] :

« قالوا : من كَيْس الضب ان لايتخذ جحره الا في كُدْية وهو الموضع الصلب أو في الارتفاع عن المسيل والبسيط ولذلك توجد براثنه ناقصة كليلة لانه يحفر في الصلابة ويعمّق الحفر ٠ — »

فانظروا كيف علّل نقصان براثنه وكلالتها فبراثنه ناقصة كليلة لانه يحفر في الصلابة ويعمق الحفر وهذا التعليل علمي محض ٠ —

والى جنب هذا كله بحثه عن غريزة الحيوان وعن إحساسه ومأأحببت ان استقصي هذه الآراء فادل على مابطل منها وعلى ماصح في عصرنا هذا فان هذا العمل انما هو عمل العالم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤
(٢) » » » الخامس ص ١١٢
(٣) » » » السادس ص ١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا الاديب فاذا تفرغ علماؤنا لتدوين أطوار العلم في العرب استطاعوا أن يجدوا للجاحظ مادة واسعة في هذا الباب وأما عملنا فاننا نقتصر فيه على ايجاز في الكلام على الجاحظ من حيث سعة عبقريته :—

وبينا نجده يبحث أمثال هذه المباحث اذ يتفرغ لباب من أروع أبواب اللغة وهو باب : حياة الألفاظ ، انكم تعلمون أن لتغيير معاني الألفاظ أسبابًا منطقية وأسبابًا روحية وأسبابًا أدبية ، فمن جملة الأسباب المنطقية الاستعارة فالاستعارة تنقل اسم الشيء الى شيء غيره لصفة من الصفات يشترك فيها الشيئان فورقة الشجر تعير اسمها ورقة الكتابة بسبب الرقة التي تشترك فيها الورقتان فانظروا كيف يخوض الجاحظ في مثل هذا الفصل فيقول [1] :

« ثم سموا الأطام التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصي قال الله عز وجل : وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم والعرب تسمي الجارح وذا الجثة صاحب سلاح فلما كان اسم سلاح الديك ومايمتنع به صيصية سموا قرن الثور الذي يجرح صيصية وعلى انه يشبه في صيصية صورته بـ صيصية الديك وان كان أعظم ثم لما وجدوا تلك الأطام معاقلهم وحصونهم وجنتهم وكانت في مجرى الترس والدرع والبيضة اجروهما مجرى السلاح ثم سموها صياصي ثم اسموا شوكة الحائك التي بها تهيأ السداة واللحمة صيصية اذا كانت مشبهة بها في الصورة فان كانت أطول شيئًا ولانها مانعة من فساد الحوك والغزل ولانها في يده كالسلاح متى شاء أن يجأ به انسانًا وجأه به وقال دريد بن الصمة :

نظرت اليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدّد

وقد تسمي العرب ابرة العقرب شوكة كما تسمي صيصية الديك شوكة وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل ويقال لمن ضربته الحمرة قد ضربته الشوكة لأن الشوكة اذا ضربت انسانًا فما اكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة ....— »

ثم توسع في هذا الباب على هذا النحو —.

هذا نمط من الأفكار التي عالجها الجاحظ يدلكم على شيء من سعة علمه وامتداد أفياء عبقريته ومن خصائص الذين يخوضون في أبواب كثيرة ويتعرضون لمذاهب شتى قلة التعمق فقد تعرض لهم أفكار كثيرة لانبساط ثقافتهم فيلمون بها إلمامًا ولا يتعمقون فيها تعمقًا فهم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٨٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يفهمون كل ما يقع عليه نظرهم ولكنهم قد لا يفهمونا إياها في بعض الاوقات على نحو فهمهم لها فالجاحظ من هذا القبيل في بعض مباحثه فهو يلهو بالمعاني لهواً فيخرج من فكر الى فكر ومن معنى الى معنى ولكنه يضرب في آفاق كل المعاني ويجول في ميدان كل الأفكار ، ايُّ كتاب من كتبه بل ايُّ سطرٍ من سطوره لا يوطئ للقاريء مجال التفكير وسوآء أتوسع في أفكاره أم ألمَّ بها إلماماً انه عظيم ولست أدري هل أورثتنا عبقرية العرب أعظم منه فهل نعرف حياةً أوسع آفاقاً من حياته العقلية وذهناً أخصب تربةً من ذهنه وفكراً اشدَّ انطلاقاً من القيود من فكره ، لقد ذاق لذَّة الحياة العقلية وتقلَّب في أعطافها فخالط عالم الأفكار واستأنس بهذا العالم فلم يستوحش من ناحية من نواحيه ، خاطب العقل في قرن متكامل ولكن هل تعلمون أي عقلٍ خاطبه ، لقد خاطب العقل الذي يكره كل باطلٍ من الاباطيل وكل قيدٍ من القيود ، فما كان عقله يأنس الاَّ بضياء الاشياء وما كان هذا العقل ينقبض الاَّ عن ظلامها ففي كل يوم كان يطلع على العالم بأفكار حديثة فما كان غذاؤه الاَّ الأفكار والاَّ المعاني ، لقد سكر كل حياته بألوان الأدب وبرنَّات الفاظه وثمل كل عمره من لذَّة العلم فجعل هذا الأدب وهذا العلم نزهة عقله ومشحذة طبعه وبجح نفسه وعمارة صدره !

دمشق : في ٢ نيسان ١٩٣٢

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صفي الدين الحلي

—«✲»—

هو الشاعر المطبوع أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا الشهير بصفي الدين الحلي .

والحلة المنسوب اليها الشاعر هي حلة بني مزيد ، وتسمى حلة بابل لوقوعها قرب بابل القديمة الى الجنوب ، الا أن أطلال بابل على شاطئ الفرات الشرقي ، والحلة على شاطئه الغربي شمالي أطلال الكوفة ولا تزال الحلة عامرة الى عصرنا ، وبنو مزيد أصحابها بطن من بني أسد بناها منهم الامير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس (كزبير) ابن علي ابن مزيد الاسدي سنة ٤٩٥ في مبدإ الدولة السلجوقية . وكانت من أرقى مدن العراق غير أن توارد الاعراب عليها ونزولهم بها جعلها كثيرة الفتن والحوادث

الحالة السياسية والاجتماعية في عصره

نشأ المترجم في عصر الدول التركية التي كان سلطانها حينئذ يمتد من شواطئ المحيط الاعظم (الهادي) الى برقة غرباً ، ومن شواطئ المحيط القطبي الشمالي الى حوض الكنج واليمن ودنقلة جنوباً ، ولو كان هذا الملك العظيم مستظلاً براية واحدة ومحكوماً بنظام واحد لنشأ في أحضانه أسمى حضارة شهدها سكان كوكب الارض ، ولكن سلطان هذا الجيل التركي لم يكن متوحداً الا في الجذم الطوراني وأصول اللغة ، وكان متقاطعاً في الدين والمذهب ، متدابراً في أصول الحكم والسياسة متفنناً في اختراع صنوف الظلم والقسوة ، فلم يجر على العالم الا الفتن المبيرة واختفاء آثار الحضارات السابقة لحكمه ، فتكونت منه دول لا تحصى من التتار في الصين وشمال آسيا وأواسطها وشرقي أوربة ، ومن بقايا السلجوقيين في الجزيرة وآسيا الصغرى وشمالي الشام ، ومن المماليك التركانية بالشام ومصر وبرقة والنوبة والحجاز . وكان ملوك كل دولة من هذه الدول الكثيرة يحكمون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البلاد بولاة وعمال من الترك مؤيدين بجيش من جنسهم وكان من الرعايا المقهورين كل رجال القضاء والادارة وجباية الاموال واعمال الري والعمارة . وفي الجملة أكثر أرباب الاقلام والادباء والمدرسين والمؤلفين ، ولذلك كان تأثير سلطانهم في اللغات الوطنية وآدابها ضعيفاً بالاضافة الى تأثيره في اضطراب الأمن وزعزعة أركان الحضارة القديمة ، ولذلك بقيت اللغة والآداب الصينية غالبة على مغول الصين ، والفارسية غالبة على مغول فارس وأواسط آسيا وعلى بقايا السلجوقيين فيها ، والعربية غالبة على الدويلات المتشعبة من السلجوقية في العراق والجزيرة وعلى دولة المماليك بمصر والشام ، ومن تلك الدويلات دويلة كان ملوكها سلالة مملوك تركي من مماليك (ملك شاه السلجوقي) يدعى (أرتق) .

صرف شاعرنا أكثر عمره في خدمة ملوكها . وكان الشأن في كل أسرة ملكية من الترك في العراق والجزيرة ومصر والشام اذا طال أمد حكمها في بيئة عربية أن يستعربوا أو يلموا بالآداب العربية ، فيروج عندها الادب العربي بعض الرواج ويعجبهم تأليف الكتب بأسمائهم ، وربما اتخذوا من أدباء العرب بطانة لهم وندماناً وسماراً ، بل ربما نظم بعضهم الشعر لهذا نجد شاعرنا ينتقل أحيانا في العراق والجزيرة والشام ومصر ويعيش بالادب ، ونجده يكثر في شعره من وصف غلمان الاتراك لكثرتهم في زمنه وامتلاء اسواق الرقيق بهم مما يسببه المغول في غاراتهم على شمالي آسيا وشرقي أوربة ، وكثر في شعره الطرديات لولع الترك بالصيد .

نشأته :— ولد المترجم سنة ٦٧٧ هـ بمدينة الحلة من أسرة عربية من قبيلة سنبس احدى قبائل طيء ، وكانت عشيرته على اشتغال كبرائها بالفقه والأدب على حالة بداوة : تحمل السلاح ، وتشترك في الغارات والحروب ، وتطالب بالثأر ؛ فنشأ المترجم نفسه على هذه السجايا ، فتأدب على أهله وعلماء بلدته وعلماء بغداد لقربها منها وشب مطبوعاً على قول الشعر ينظمه تأدباً وتطرباً لا استجداءً به وتكسباً كما قال هو عن نفسه .

وحدث في شبيبته ان شبت فتنة بين أسرته المسماة آل محاسن وبين أسرة أخرى تسمى آل ابي الفضل فاغتال آل ابي الفضل خالاً له يدعى صفي الدين ابن محاسن : قتلوه في مسجده ، وكانوا أقوى من أسرة المترجم ، فأعمل صفي الدين لسانه وقلمه وقصد أمراء النواحي ورؤساء العشيرة يستنجدهم على أخذ ثأر خاله من آل ابي الفضل ؛ وحدثت بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفريقين موقعة انخذل فيها آل ابي الفضل فافتخر صفي الدين هو وعشيرته باخذ ثأرهم من عدوهم . فذلك حيث يقول في مطلع قصيدته الشهيرة :

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

الا ان هذه الموقعة لم تكن خاتمة الفتن ، بل بقيت العداوة يحتدم أوارها ويشتد أذى آل ابي الفضل على المترجم وأُسرته حتى أزعجوه عن المقام في بلده ، وخشي غائلتهم ؛ فخرج مهاجراً حتى ألقى عصاه في مدينة ماردين من إقليم ديار بكر بارض الجزيرة الفراتية مستظلاً بحماية ملوكها من بني أُرتق « كقلقل» وهم ملوك دولة من فروع الدولة السلجوقية دخلوا في طاعة التتار وحاسنوهم فأبقوهم على حكم ماردين وإقليم ديار بكر . ومؤسس ملكهم أُرتق الكبير وهو مملوك شجاع من مماليك آل سلجوق . وعاصر المؤلف منهم الملك المنصور نجم الدين غازي وولده الملك الصالح ، وعاملاه معاملة كريم مستجير بهما لا معاملة شاعر مستجد . وكتب الى أهله بالحلة عند وصوله الى ماردين يقول :

ألا بلغ هُديت سراة قومي بحلة بابل عند الورود
الا لا تشغلوا قلباً بعدي فاني كل يوم في مزيد
لاني قد حللت حمى ملوك ربوع عبيدهم كهف الطريد
فمن يك نازلاً بحمى كليب فاني قد نزلت حمى الاسود

وبقي في كنف الملك المنصور غازي يمدحه وينادمه حتى مات المنصور سنة ٧١٢ ومدحه بجملة مدائح منها القصائد المسماة بالأُرتقيات ، وهي تسع وعشرون قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم يبدأ في كل بيت منها بحرف وبه يختم أي يكون روياً ومبدأ وجعلها ديواناً سماه « درر النحور في مدائح الملك المنصور » ثم كان في خدمة ولده الملك الصالح فخف على قلبه ومزجه بنفسه واصطفاه وأسبغ عليه نعمته وجعله في خاصة بطانته ينادمه ويؤانسه ، ويخرج معه الى الصيد والوقائع ، وطاب له العيش في ماردين ، ووفرت نعمته واقبل على اللهو والطرب ونظم الشعر في الغزل والخمريات والدعابة والمجون حتى اذا ناهزت سنه الخمسين عزم على المتاب من شرب الخمر وارتكاب الآثام ، وجعل باكورة التوبة الرحلة لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام سنة ٧٢٤ هـ ودخل مصر بعد حجه سنة ٧٢٦ وسلطانها يؤمئذ الملك الناصر محمد بن قلاوون ووزيره و كاتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سره القاضي علاء الدين بن الاثير الجزري الكاتب المؤلف المشهور ، فمدحه ومدح الناصر بقصيدة طنانة عارض بها قصيدة ابي الطيب « بابي الشموس الجانحات غواربا » ومطلعها:

اسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

فأغدق عليه نعمه وهداياه . ثم رحل الى الشام فنزل بدويلة من بقايا آل أيوب مستظلة بحماية سلاطين مصر من آل قلاوون ، وتحكم مدينتين او ثلاثاً من مدن وادي العاصي وحاضرتها مدينة «حماة» وكان سلطانها في ذاك الوقت الملك المؤيد ابو الفداء عماد الدين اسماعيل مؤلف كتاب « تقويم البلدان » والتاريخ المسمى « المختصر في أخبار البشر » فنزل ضيفاً عليه فأكرمه ، وبقي أثيراً عنده مدة ، ويظهر من مراثيه ومدائحه ومكاتباته انه أقام بالشام عدة سنين ، ولقي بدمشق الشهاب محموداً الحلبي وابن نباتة المصري . وتكسب فيها بالتجارة . ثم لحق بمخدومه بماردين بعد غيبة طويلة . وصار يختلف الى بلاد الجزيرة وبغداد والشام ويراسل أدباءها ويمدح ملوكها ويرثيهم . ولم نعلم عن يقين البلد الذي مات به ونرجح أن تكون وفاته بماردين . ومات سنة ٧٥٠ هـ .

علمه وأدبه . — كان علم صفي الدين لا يعدو اللغة وآدابها وكان يحفظ كثيراً من شعر المتقدمين المجودين في اللفظ والأسلوب من أمثال ابي نواس والبحتري وابي تمام وابن الرومي وابن المعتز ، فأثرت فيه خمريات ابي نواس وغلامياته وأثرت فيه أوصاف ابن المعتز وطردياته ، وكثيراً ما أغار على معاني هؤلاء ، ولم يكن علمه بغريب اللغة ولا تاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم موازياً لشهرته بالادب ولا بافتخاره بالانتماء الى سنبس من طيء ، ومبلغ علمه من الادب واللغة أنه حفظ الكثير من الشعر فاكسبه ملكة قلما تهيأت لاحد في عصره .

ذكاؤه وتوقد خاطره . — كان صفي الدين على جانب عظيم من توقد الخاطر وسرعة البديهة يعرف ذلك من قرأ ديوانه فرأى فيه الكثير من غرائب الصناعة البديعية كالاكثار من عجيب التصحيف وما لا يستحيل بالانعكاس والاكثار من القصائد المهملة الحروف والمعجمتها المصغرة الالفاظ وذوات القافيتين وضوابط الشطرنج والعلوم ، ولو انه بذل بعض هذا الجهد في استخلاص لباب اللغة والغوص على المعاني الرائعة لبذ المتقدمين ، ولكن هكذا كان دين أهل عصره ورغبتهم من الادب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخلاقه :— نشأ صفي الدين في الحلة على فطرة عربية من الشيم وإباء الضيم ، وحب الانتقام والاخذ بالثار ، وشهود المعارك والرغبة عن ذل السؤال ، ونظم الشعر للتطرب والرياضة لا للاستجداء كما يتحدث بذلك عن نفسه في مقدمة ديوانه وكما يستخلص من قراءة شعره في شبابه غير انه لما لحق بخدمة متأخري آل أرتق قبيل انتهاء دولتهم ، وكانوا أهل ترف وانهماك في اللذات ومعاقرة للخمر ولهو بالصيد والقنص اعتاد من عاداتهم ، ونادمهم في مجالسهم ، وتغزل في غلمانهم . وأفحش وفجر . ولما علت سنه عزم على التوبة والنسك وحلف الا يشرب الخمر ، ولكنه نقض التوبة مراراً فعاد وشربها مرضاة للامراء والرؤساء .

ومن الغريب في امره تصريحه في قصيدة خمرية ذكر فيها تنغيص شهر رمضان على الشاربين لذاتهم بان لا ينسك الا بعد ٦٨ سنة من عمره وذلك حيث يقول منها :

فيه هجر اللذات حتم وفيه (غير مستحسن وصال الغواني)

وقبيح فيّ التنسك الا (بعد ستين حجة وثمان)

ولا أدري سبباً لارجاء التوبة النصوح الى هذا السن المضبوطة بالعدد الا تضمينه شطري مطلع القصيدة التي بعث بها الشريف ابو ابراهيم موسى بن اسحق الى ابي العلاء المعري وهذا هو المطلع :

غير مستحسن وصال الغواني بعد ستين حجة وثمان

فأجابه ابوالعلاء بنونيته الشهيرة التي مطلعها :

عللاني فان بيض الاماني فنيت والزمان ليس بفان

ولا ندري على اي حال انتهت حياته ، وكان الحلي يتشيع نوع تشيع يترضى عن الصاحبين ، وينكر على الأمويين والعباسيين جد الانكار ، وتلك نزعة قديمة العهد في أعراب الفرات والجزيرة منذ عهد علي ومعاوية وأرسخها فيهم وجود مشاهد النجف وكربلاء بين ظهرانيهم .

شعره :— نشأ صفي الدين في القرن الذين خلفوا قرن القاضي الفاضل وانتحلوا طريقته في التهافت على استعمال المحسنات البديعية والشغف بها شغفاً أخرجهم عن قصد البلاغة فكان معاصراً لكثير من كبار ادبائهم وشعرائهم ومؤلفيهم من أمثال شهاب الدين محمود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحلبي وابن فضل الله العمري وابن نباتة المصري وصلاح الدين الصفدي وعلاء الدين بن الاثير والملك العالم المؤرخ الاديب مؤيد الدين صاحب حماة ، فكان صفي الدين علماً شامخاً بين هؤلاء الاعلام معترفاً له بالسبق في فنون من الشعر والاجادة في أخرى ، وكلهم كاتبه وراسله وعارضه وعابثه فاذا وازناه بهم واحداً واحداً من كل وجه طال بنا المقام ، ولكنا نشير اليك هنا بأن شهاب الدين كاتباً ومؤلفاً أرجح منه شاعراً وأن صناعته في الكتابة أروع من صناعة صاحبنا: فصفي الدين اشعر منه واكثر طروقاً لفنون الشعر وأبوابه وأن ابن فضل الله العمري امام لايجارى في الادب والتاريخ ووصف الارضين والشعوب والملل والنحل وكتابة الترسل ، وصفي الدين في غير الادب ليس هناك فهو يفضل ابن فضل الله في الشعر ويفضله في كل ما تقدم ، وأن الصفدي وان كان ذائع الصيت في الشعر وانتحال البديع الا أن التأليف غلب عليه ، فزاحمت ملكة التأليف وتقرير الحقائق ملكة الشعر وانتزاع الخيال وبذلك يكون صفي الدين أشعر منه وأطبع في الشعر ، وكذلك شأنه مع ابن الاثير . بقيت الموازنة بينه وبين ابن نباتة وهما متشابهان في كثير من الامور ، فهما شاعران مطبوعان غلبت فيهما ملكة الشعر على كل صناعة ادبية ، بل كانا أشعر شعراء المشارقة في عصرهما ويمتاز ابن نباتة برقة اللفظ ، ومراعاة الذوق الادبي ، ودقة النكتة ، ولطف الكناية والتعريض ، وليس ذلك فيه بعجيب ؛ فهو مصري صميم تخرّج بشعر القاضي الفاضل ، وابن سناء الملك ، والبهاء زهير ، وابن مطروح ، وابن قلاقس الاسكندري ، فانطبعت في شعره صورهم وتقمصت به أرواحهم ، وبرع ابن نباتة في التورية جد براعة حتى لم يبق لاديب معه فيها كبير نصيب ، ولم تقل كتابته على الطريقة الفاضلية عن شعره كثيراً ؛ فهو كاتب بديعي بارع متكسب بصناعة الكتابة والترسل في دواوين مصر والشام .

واما صفي الدين فشاعر بديعي صقيل اللفظ رائع الاسلوب متفنن في كل غرض صاحب مقطعات ومطولات ومسمطات وموشحات وينظم من أوزان العرب والمولدين ، ويقول الدوبيت ومجزو الدوبيت . وهو من الغلاة في البديع فيجيد المطولات المؤلفة كلماتها من الحروف المهملة تارة والمعجمة أخرى أو التي حرف منها مهمل وحرف معجم أو التي كلمة منها مهملة والاخرى معجمة أو التي كل أسمائها مصغرة ، أو لاتستحيل بالانعكاس ، ثم هو بعدُ غاية في الجناس ، الا أنه ليس له في التورية كثير غناء ولكن الاديب الحاذق يري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن كل ماامتازبه الحلي داخل في باب التكلف والتحذق لافي باب الانطباع والرقة والرشاقة . وبذلك يُفضّل ابن نباتة في جملته علي الحلي في جملته .

« للبحث صلة » احمد الاسكندري

آراء وافكار

استفهام

طالعت في الجزء الاخير من مجلة المجمع فصلاً للاستاذ المحقق الشيخ بهجة الأثري فيه لغة وأدب وتشريع وتاريخ وقد وافقت على كل ماجاء فيه تقريباً . وأسر ما سرّني منه إنكاره الحيل الشرعية واستهجانه تسمية كتاب الامام محمد بالحيل واستشهاده باقوال ابن قيم الجوزية على إبطال هذه الحيل من أصلها وذلك في كتابه القيم « اعلام الموقعين » .

أماالذي لم أوافق عليه في هذا الفصل الممتع فهو قوله : « ومن مأثور أقوالهم ركب جنح نعامة » لمن جدّ في امر . فان المثل « ركب جناحي نعامة » أو « جناح نعامة » ولايخفى ان الجنح غير الجناح . فالجنح هو الجانب ويقال جنح الليل بضم فسكون أوبكسر فسكون أي جانبه وقيل اوله وقيل قطعة منه نحو النصف . ويقال كأنه جنح ليل يشبه به العسكر الجرار . ويقال جنح الطريق ايضاً أي جانبه . وعلى كل حال لم يرد «جنح نعامة» ولا جنح اي طائر وانما هو جناح . واما استشهاد الاستاذ الأثري بقول شاعر الحماسة :

كأن بصحراء المريط نعامة تبادرها جنح الظلام نعائم

فهو دليل على قولهم «جنح الليل» و « جنح الظلام » لا على « جنح النعامة » ولا أزال أحفظ ان اليازجي الكبير في مقاماته استعمل «الجنح» بمعنى «الجناح» مضافاً الى الطائر فأخذ عليه في ذلك احمد فارس صاحب الجوائب . فان كان عند الاستاذ الأثري نص أو شاهد يوثق به على ورود جنح بمعنى جناح مضافاً للطائر فليدلِ به فانما انا مستفهم .

جنيف : شكيب ارسلان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ملاحظات

اطلعت في الجزء الثاني عشر من المجلد الحادي عشر من مجلة المجمع العلمي على مقال للاستاذ سليم عنحوري يحتوي على ترجمة الحلاج فرأيت فيه من المآخذ مايجب التنبيه عليه. ذكر في ص ٧٤٦ و٧٤٧ ان الذي دعاه الى ترجمة الحلاج كونه أديباً متكلماً ينظم شعراً عربياً خالص العروبة لامغمز فيه ولا لحن يذهب فيه مذهباً غريباً — الى ان قال: فالحلاج إذن شاعر له مزية على غيره هي تفرده بطريقة اختطها لنفسه.

والحقيقة اننا لم نر أحداً ممن ترجم الحلاج مع كثرة من ترجمه قال عنه إنه أديب أو شاعر لتكون له طريقة خاصة أو شاعرية خاصة. وغاية ماقالوا عنه انه نسبت اليه أبيات كان يتمثل بها. وجميع ما نسب اليه لا يتجاوز ثلاثين بيتاً من الشعر مع جواز انه لم ينظمها. ومثل هذا العدد الضئيل لا يحشره في جملة الشعراء حتى ولا النظامين. ويشهد لهذا ان صاحب المقال نسب الى الحلاج هذين البيتين (انا من أهوى ومن أهوى انا. الخ) مع ان ابن خلكان في تاريخه ذكرهما في ترجمة الحلاج ولم ينسبهما اليه، ونسب اليه ايضاً: (أرسلت تسأل عني كيف كنت وما. الخ) ونسب ابن خلكان اليه ايضاً هذين البيتين ثم ذكر ان ممن تمثل بهما ايضاً سمنون بن حمزة الزاهد وهو من المعاصرين للحلاج. فهذا يؤيد ان مانسب اليه لايخرج عن حد النسبة أوالتمثل وأي رجل عنده أدنى ملكة في العلم لايتمثل باقوال الشعراء.

وجاء في ص٧٤٤ ان الحلاج صحب حال حياته القاسم بن الجنيد والثوري والحسن البصري فصحبته للحسن البصري وللثوري لم نر احداً قال به قبله. كيف وبين وفاتيهما وولادته عشرات من السنين فوفاة الثوري سنة ١٦١ هـ ووفاة الحسن البصري سنة ١١٠ هـ فاذا ثبت ان الحلاج قتل سنة ٣٠٩ هـ وبالغنا في عمره وقلنا سنه يوم قتل ستون سنة فتكون ولادته عام ٢٤٩ وعليه فتكون وفاة الثوري قبل ولادة الحلاج بـ ٨٨ سنة. ووفاة الحسن البصري قبل ولادته بـ ١٣٩ سنة فكيف تسنى له الاجتماع بهما ؟

وقوله: القاسم بن الجنيد خطأ. وانما هو ابو القاسم الجنيد بن محمد.

وجاء في ص٧٤٩ و٧٥٠ ان الوزير حامداً أحضر القاضيين: ابا عمرو بن العلاء وجعفر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن بهلول في محاكمة الحلاج . فزيادة ابن العلاء وهم ايضاً لان ابا عمرو بن العلاء توفي سنة ١٥٤ فيكون بين وفاته ومحاكمة الحلاج نحو من ١٥٥ سنة والذي في تاريخ ابن خلكان : القاضي ابو عمر بغير واو ولم يذكر اسمه ولا اسم ابيه .

وجاء في ص٧٤٤ سطر١٤ العباس بن سريج وانما هو ابوالعباس بن سريج كما في ابن خلكان .

هذا ما رأيته من المآخذ الجديرة بالذكر وهنالك امور أُخر أضربنا عنها صفحاً .

دمشق : محمد احمد دهمان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مطبوعات حديثة

—(())—

آداب المعلمين

« مما دون محمد بن سحنون التنوخي عن أبيه . عني بنشره السيد حسن حسني »
« عبد الوهاب التونسي طبع بمطبعة العرب بتونس سنة ١٩٣١ ص٧٦ »

هذا الكتاب من مطبوعات اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العربية نشرها صديقنا العلامة السيد حسن حسني عبدالوهاب الذي اشتهر بتآليفه وتحقيقاته الكثيرة باللغتين العربية والفرنسية قدم له مقدمة مستوفاة للتعريف بالمؤلف وهو من أهل القرن الثالث للهجرة وشفعها بلمحة عن الكتاتيب بافريقية في زمن المؤلف فقال : « ان الغزاة العرب من الصحابة وتابعيهم لما فتحوا إفريقية في أواسط القرن الاول للهجرة كان الكثير منهم في عيالهم وذراريهم فعندما أناخوا بمعسكرهم وخطوا (قيروانهم) كان أول ماأنشأوا الدور والمساجد ثم التفتوا الى تعليم صبيانهم فاتخذوا لهم محلاً — كتاباً — بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كلام الله العزيز ... حكى غياث بن ابي شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه . » « ولم يزل شأن الكتاتيب في نمو وعددها في ازدياد وتكاثر في العاصمة وفي المدائن الإفريقية الكبيرة كتونس وسوسه وصفاقس حتى لم يخل منها درب من الدروب أو حي من الأحياء وربما تعددت الكتاتيب في الحارة الواحدة مثلما تعددت المساجد في الحارات . ولاعجب ان اعتبرت الكتاتيب في القديم كملحقات بالمساجد وتوابع لها بل انما وجدت ايضاً في دور الأعيان والاغنياء ، وبالاحرى في قصور الوزراء والامراء . » وقال: ان التعليم الابتدائي ما كان يختص بالولدان دون البنات بل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انه كان شاملاً للجنسين لا سيما عند المياسير وذوي الحيثيات وأرباب المناصب العالية . ومما لاريب فيه ان معلمات من فاضلات النساء كن يهذبن ويعلمن الجواري والبنات المقصورات في الدور والقصور في كل عصر من العصور . ثم ذكر طريقة التعليم في الكتّاب وما الى ذلك من الفوائد التي حققها من التاريخ فكانت صورة صادقة لعناية المسلمين بتعليم أبنائهم .

أما متن الكتاب الذي علق عليه وقدم له هذه المقدمة البارعة وقفى عليه بآراء بعض علماء العرب في التربية كأبي بكر بن العربي وابن خلدون الحضرمي — فهو على أسلوب الرواية عند المحدثين ، ذكر فيه ماجاء في تعليم القرآن وفي العدل بين الصبيان وفيما يجوز من الأدب ومالا يجوز وفي واجبات العلم واجارته وما يجب له من لزوم الصبيان الى آخره . فجاء الأصل والتعليق من جميل ما يقتنى ، يستفاد منه على صغر حجمه .

م . ك

تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

« الجزء الاول وفيه سيرة السيد جمال الدين الأفغاني تأليف السيد محمد »
« رشيد رضا . الطبعة الاولى في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٥٠ — ١٩٣١ »
« ص ١١٣٤ »

كان قراء العربية أشوق مايكون لصدور هذا الكتاب بعد ان صدر الثاني والثالث منه منذ سنين . وهما في منشآت أستاذنا الشيخ محمد عبده وماقيل في تأبينه ورثائه . وهذا الجزء في سيرته توسع فيها صديقنا الاستاذ توسعاً عظيماً لم يترك معه من سيرة المترجم له مجالاً لقائل وشفعها بوثائق تاريخية أهمها ما كان من قلم المترجم له رحمه الله مثل ترجمته لنفسه منذ نشأته ومفكراته في الحوادث العرابية ، وقد اتهم بانه مشايع لرجال الثورة فحبس أشهراً ثم نفي الى الشام ثلاث سنين ، وقد توسع المؤلف ايضاً فيما وقع للاستاذ الامام في السياسة ، وذكر أثره في نهضة مصر العلمية ، وهذا أهم من حياته السياسية . فان في حياته العلمية عبراً كثيرة ودروساً مفيدة في الاصلاح الاسلامي ، تعلم وتذكر وتثقف ، ولا يستغني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن تدارسها من يضرب باصغر سهم في الحركة العلمية العصرية . وقد لحظنا من مجموع هذا التاريخ ان المترجم له زُجَّ في السياسة زجاً فكان مضطراً الى ركوب مراكبها الخشنة ولذلك رأيناه بعد ان صفا له الزمن وكان مفتي مصر الاكبر يتخلى عن السياسة ولم يرض ان يدخل غمارها بالفعل مع أنه أُريد على الدخول فيها قائلاً في الاعتذار أنه خُلق معلماً ويرجو أن يموت معلماً . وهكذا كان الى ان ناداه ربه الى جواره . لاجرم ان نشر هذه الوثائق المفيدة برمتها قد أورث الكتاب تطويلاً ولكنه تطويل محبوب غير مملول ، وقد حفظ المؤلف بهذا الصنيع جانباً كبيراً من تاريخ مصر الحديث ومثالاً صادقاً عن وقائع يهتم لها أبناء هذا الشرق القريب عامة . وكأن المؤلف يستخدم أسلوب المعلمين في التدريس باسلوبه فيكرر العبارة لترسخ في أذهان الطلبة ويورد عليها الشواهد لبيان مافيها من المقاصد . وقد يرى المطالع انه قد خرج من الموضوع كثيراً بما يقرأ من الاستطراد الذي قد ينفع الاستغناء عنه ثم لا يلبث المؤلف ان يعود بالقارئ أدراجه فيدرك انه في صدد قراءة سيرة عظيم من عظماء الاسلام .

وهذا النمط من التأليف بمايحمل في مطاويه من متانة عربية شائقة لا نزاع فيها هو فيما اختص به فيما نرى الكاتب المدقق السيد محمد رشيد رضا وقد يكثر في كتابته من ذكر خصوصيات لاشأن لها في العموميات . وكان الموضوع يكتسب روعة وجلالاً اكثر لو خلت منها مكتوباته . وهذه النمشة الطفيفة لاتقدح في ذاك الوجه الجميل .

ومما يجب ان يستفاد منه ان الرجل الحكيم الشيخ محمد عبده بدأ بتعلم اللغة الفرنسية في الرابعة والاربعين من عمره وقد كلمناه قبيل وفاته فكان يتكلم بها مع أحد علماء المشرقيات برشاقة لاغبار عليها ولم يحص عليه مدة ساعة كاملة غلطة أوشبه غلطة . وقد بدأ بتعلمها على أستاذ فكان هو يتلو أمامه قصة لاسكندر دوماس وذاك يصلح له النطق ويفسر له الكلم ثم تعلم نحوها بالتدريج وكان يسافر كل سنة الى سويسرا وفرنسا ويحضر في جنيف دروس العطلة في كليتها فتعلم الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغاله بالقضاء وقال عن نفسه في هذا الصدد : « ثم ان الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة اوربية هو اني وجدت انه لايمكن لاحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة اوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مشتبكة مع مصالح الاوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم ان يشتغل للاستفادة من غيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم . »

م . ك

الرسالة النباتية

جردنا هذه الرسالة للاستاذ الامير مصطفى الشهابي من هذه المجلة وهي كما علم القراء في بعض نباتات زراعية لم ترد في معجم أسماء النبات للدكتور احمد عيسى ومعجم العلوم الطبيعة والطبيعية للدكتور محمد شرف وقصدنا بذلك ان يقف عليها من لا يطلعون على أجزاء هذه الصحيفة . وأبحاث الاستاذ المؤلف على ما يوقن العارفون لا تحتاج الى تقريظ لانها أثر من آثار البحث والدرس وله الفضل في استخراج مئات من الألفاظ من معاجم اللغة العربية في المعاني الزراعية وايجاد ما يقابلها من الاسماء اللاتينية هذا الى غير ذلك من أبحاثه التي يعرفها قراء هذه المجلة .

م . ك

طوق الحمامة

« في الألفة والأُلاف تأليف الامام ابي محمد علي بن حزم الاندلسي المتوفى »

« سنة ٤٥٦ هـ عنيت بنشره مكتبة عرفة بدمشق »

تمثلت الحياة لعين السلف بصورتها الحقيقية فخبروها وادركوا ماهيتها واجادوا وصفها فما تركوا لها ظاهرة الا وقد احصوها ولا خافية الا وقد نفذوا اليها ببصائرهم فجاءت مؤلفاتهم في هذا المبحث ضافية وافية تنطق بفضل غزير وسعة علم وعلو همة .

وقد اتى عهد طويل على كثير من هذه المؤلفات كانت فيه مهملة لا تعرف قيمتها ولا يقدر نفعها لما غشي بصيرة الخلف من جهل وضلالة حتى انها كادت تندثر لولا ان تداركها الغرب بحكمته فعني بجمعها وحفظها ونشرها . ومن هذه الكتب القيمة التي طوتها العصور الى عهد قريب « طوق الحمامة » في الألفة والأُلاف للعالم الكبير الامام ابي محمد علي بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حزم الاندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ ﻫ فقد اتى فيه المؤلف على صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه وما يقع فيه وله مقتصراً في جميع ما اورده على الحقيقة المشاهدة والحوادث الواقعة والخبرة الشخصية فجاءت رسالته هذه صفحة ادبية اجتماعية أخلاقية تنير ناحية مظلمة من نواحي النفس البشرية وتحل عقدة هي اشد عقد الحياة الاجتماعية تعقيداً الا وهي الحب الجنسي منذ النظرة الاولى حتى النفس الاخير على ما يتخلل هذين الأصلين المتقابلين من علامات وصفات وتعريض واشارة ومراسلة وسفير وطي سر واذاعة وطاعة ومخالفة ومساعد ورقيب وواشٍ ووصل وهجر ووفاء وبين وقنوع وخنى وسلو وقبح معصية وفضل تعفف وذلك باسلوب لا يختلف عن مناهج العصر الحاضر في التأليف وعبارة سهلة ممتنعة يتخللها قطع شعرية من نظم المؤلف مما يجعل لهذا الكتاب شأناً ادبياً واجتماعياً وينم عن فضل مؤلفه وغزارة علمه وسمو خلقه وسعة خبرته وصدق فراسته .

وكنا نود لو اشار الناشر الى الاصل المطبوع في ليدن من هذه الرسالة البديعة لئلا يُغمط حق ناشره الاول .

اسعد الحكيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net